
حكايات
يه شنغ تاو
المختارة

حكايات
يه شنغ تاو
المختارة

الطبعة الاولى : : : : : : عام ١٩٧٩

الطبعة الثانية : : : : : : عام ١٩٨٦

الرسوم : هوانغ يونغ يوى

٢٤ شارع باى وان تشوانغ
بكين — الصين

طبع فى جمهورية الصين الشعبية

الفهرس



مقدمة

كتبت عشرات من الحكايات قبل ٣٠ سنة ، منها تسع حكايات جمعت فى هذا الكتاب . والغرض من كتابتها هو لفت انتباه الاطفال الذين كانوا يعيشون فى ذلك العهد ، الى واقع المجتمع الصينى ، بدلا من ان يغمضوا الاعين عنه ، ويصموا الآذان تجاهه .

اتخذت حكاية « تمثال لبطل قديم » مادة دراسية فى التعليم الابتدائى ، لذا كتب الى كثير من المدرسين والتلاميذ رسائل يسألون فيها عن هذه الحكاية من النواحى المختلفة باختلاف فهمهم لها . ودائما ما اقول لهم فى رسائلى ان ما استطيعه هو ان اوافيهم بفكرتى عن كتابة هذه الحكاية وهى ، كما كتبت فى آخرها ، ان تتجمع الاحجار ، صغيرة كانت او كبيرة ، لخدمة الناس بتشييد طريق حقيقية يسيرون فوقها . ويعتبر ذلك حياة لها معنى اكثر بالنسبة الى الاحجار ، اما ان تنحت الصخرة الكبيرة على شكل تمثال لبطل وان تصنع الاحجار الصغيرة قاعدة للتمثال ، فلا معنى لذلك اطلاقا .

ووصفت الصخرة الكبيرة التى لم تستطع كبح جماح غرورها بعد ان نحتت تمثالا فاحتقرت رفيقاتها الصغيرات مفتخرة بأنها متفوقة عليهن وصفتها وصفا على اساس التخمين لنفسية الصخرة الكبيرة ، وكذلك وصفت بالتخمين تصرفات الاحجار الصغيرة ازاء غرور الصخرة الكبيرة .

وكتبت حكاية « لغة الحيوانات » فى اثناء العدوان الذى شنه موسولينى على الحبشة . اما حكاية « قصة قاطرة » فتم اعداده حين بدأت الامبريالية اليابانية عدوانها على الصين وهب ابناء الشعب الصينى لمقاومتها بينما حكومة الكومينتانغ الرجعية لا تسمح للشعب بذلك .

عزيزى القارئ ، بالنسبة لك فربما يكفى ان اوضح هذه النقطة السابقة ، الا ان

هناك شيئا اود ان اخصه بالايضاح .

ان الوقائع والاحداث التى جاءت فى حكاياتى قد طرأت عليها تغييرات على نطاق البلاد كلها منذ عام ١٩٤٩ . فلم تمض عشرة اعوام على الثورة الصينية البعيدة المدى والتى خاض غمارها الشعب الصينى تحت قيادة الحزب الشيوعى الصينى العظيم ضد ظلم النظام السابق وقسوة الظروف الطبيعية ، حتى ظهرت بلادنا بمظهر يختلف جذريا عما كانت عليه من قبل .

والآن ، سيجد الشحرور ما لا حصر له من الاشياء السارة المحبوبة اينما طار ، وسيغنى لها بصداحه العذب الطروب وهو لا يعرف كللا او مللا .

وستجد الفزاعة نفسها واقفة بين حقول منسقة واسعة ، وجداول متدفقة المياه ، واحزمة منظمة من الاشجار . . . ، كل ذلك لم تجد له الفزاعة اثرا قبل التحرير . وان ما يزيدها دهشة هو مدى ما يبذله الفلاحون من الجهود الكبيرة فى العمل ومبلغ تعاونهم فيه ، فى حين ان البسمة ترتسم على شفاههم وصوت اغانيهم يعتلى صهوة السحاب ، منسابا مع النسيم . كل هذه المشاهد الرائعة خلال عشرة اعوام تفوق التصور ! وستجد الفزاعة ايضا ان النباتات قوية والحصاد وافر ، فبدأ الشك يخالجها : هل هذه النباتات من ذلك النوع من البذور التى زرعت قبل عشرة اعوام ؟ لعل الفزاعة ستحس بهموم جديدة تغزو نفسها ، اذ ان " جسمها شبيه بشجرة راسخة فى الارض ، لا تستطيع ان تتحرك شبرا واحدا من مكانها "، والا ذهبت منذ وقت مبكر الى الفلاحين تشاركهم فى العمل .

اما العشبة الخجولة فلم تعد تشعر بالخجل لهذا السبب او ذاك ، لأن ما يدعو الى الخجل قد زال تماما . ولا شك ان وريقاتها ستكون قد " انكمشت وانهارت مثلما يطأطئ طفل خجول رأسه ويسبل ذراعيه " ، لكن ذلك لا يحدث الا عندما يمسها الاطفال بدافع الفضول. وطالما يحب الاطفال ان يشاهدوها وهى على هذه الحالة المميزة من الخجل ، فكيف يسعها ان ترفض ؟

لم تقتصر التغييرات على بلادنا بل تمتد لتشمل انحاء العالم كله. فهل ظل موسولينى

حيا سالما ؟! لقد نهضت القارة الأفريقية واقفة كعملاق افاق من نوم عميق ، ترفع جبهتها وذراعيها لتستقبل شروق الشمس . طبعا ، لم يختف ظل موسولينى تماما حيث نستطيع ان نبين من هو موسولينى الثانى والثالث . . . ، الا انهم لم يكن فى امكانهم ان يتصرفوا بلا تورع مثل موسولينى الاول ، لأن جميع القارات قد نهضن عملاقات يرفعن جبهاتهن واذرعهن ويفرضن الحصار عليهم ، وفضلا عن ذلك فانهم كلما تذكروا مصير موسولينى الذى اعدم شنقا فى مدينة ميلانو ، احسوا بشىء من الرعشة يسرى فى اوصالهم .

وعليه فان حكاياتى هذه تتحدث عما مضى من الاحداث تقريبا ، وهذا بالضبط يتفق مع قواعد كتابة الحكاية ، أ ليست الحكايات تبدأ عادة بكلمة " كان فى قديم الزمان . . . " ؟

يه شنغ تاو

مايو ١٩٥٩

حبة كبيرة

كان في قديم الزمان حبة كبيرة بحجم الجوزة ، غلافها اخضر جميل كل من رآها اعجب بها ، وقال انها لو زرعت لأنبتت براعم بلون اليشب الأخضر . اما زهورها فانها ستكون بكل تأكيد اجمل واجمل ، حتى ان الورد والفوانيا والاقحوان لا تستطيع ان تنافسها . وسوف يكون عطرها فواحا يفوق عطر الخزامى والزنبق والياسمين !

لكن احدا لم يزرعها حتى الآن ، لذلك لم يسبق لأي انسان ان شاهد جمال ازهارها او شم عبيرها الفواح .

وعندما سمع الملك الحديث عن تلك الحبة فرح فرحا عظيما ولم يستطع ان يملك نفسه عن الضحك من فرط السرور .

كانت لحيته بيضاء كثيفة كغابة مشتبكة الاغصان ، وكانت تغطي كل فمه ، اما الآن فقد بدت في تلك الغابة الكثة فسحة مكشوفة لأن الملك عندما بدأ يضحك اضطر الى ان يفتح فمه واسعا .

قال الملك :

— في حدائقي كل انواع الزهور : الزهور الصغيرة البيضاء التي تخترق الثلج في الشمال ، استقدمتها الى قصري . وازهار اللوطس الواسعة كالطبق والتي تنبت في الجنوب الحار قدموها الى عربون ولاء .

ولكن كل هذه الازهار شائعة في العالم . فاذا استطعت الحصول عليها ففي امكان غيري ان يحصل عليها ايضا ! ما الغرابة في ذلك ؟! اما الآن ، ولحسن حظي ، فان هذه الحبة فريدة من نوعها ولا مثيل لها في الدنيا . وعندما تبرعم ثم تزهر لن يكون

لها ند . هذه الحبة سوف تكون برهانا على عظمتى وقوتى ، ها ! ها ! ها !

وهكذا امر الملك ان تؤخذ الحبة وتزرع فى اصيص من اليشب الابيض . ومن الحديقة الملكية جلبوا التراب ونخلوه مرارا حتى يكون ناعما ناعما . وفى جرة من ذهب خزنوا الماء لريها بعد ان صفوه مرارا حتى يكون صافيا صافيا .

ومع الفجر ، كان الملك يحمل بنفسه الاصيص من غرفته الزجاجية ويضعه امام قاعة العرش وفى المساء كان يعيده بنفسه الى الغرفة الزجاجية . وفى الايام الباردة كانوا يشعلون مدفأة فى الغرفة الزجاجية لتأمين الحرارة .

وعندما كان الملك يغفو يرى فى نومه برعما بلون اليشب الأخضر يخرج من الاصيص ، واذا استيقظ فقد اعتاد ان يقضى وقته قرب الاصيص يراقبه .

ولكن اين هذا البرعم الاخضر كالزمرد ؟ لم يكن هناك ، فعلا ، الا اصيص من اليشب الابيض ملىء بالطين الأسود .

مر الوقت سريعا كأن الستين التفاتة خاطفة . وفى الربيع ، عندما يبدأ النبات يبرعم كان الملك يقف بجانب الأصيص متوسلا :

— كل النباتات تبرعم ، أفلا تبرعمين مثلها ؟!

وفى الخريف عندما تبرعم نباتات كثيرة مرة ثانية كان الملك يقف ايضا بجانب الاصيص متوسلا من جديد :

— النباتات الثنائية التزهير برعمت من جديد ، أفلا تبرعمين مثلها ؟!

ولكن عبثا . عندئذ غضب الملك وهتف قائلا :

— هذه الحبة ميتة . انها نتنة ودميمة . ما فائدتى منها .

ثم راح يحفر الطين ليخرج الحبة التى ظلت كما كانت كبيرة فى حجم الجوزة ، اما غلافها فقد ظل اخضر لماعا ، وما ان رآها حتى ازداد غضبا فرماها بكل ما اوتى من قوة فى بركة القصر .

وانتقلت الحبة مع المياه نحو مصرف البركة ومن هناك الى جدول صغير فى الريف . ووقعت الحبة فى شبكة صياد سمك يرتاد ذلك الجدول واثارت الحبة دهشته فراح ينادى

عليها بصوت عال ، سمعه شخص غنى ففرح فرحا عظيما ولم يتمالك عن الضحك من فرط السرور حتى تغضنت عيناه وانتفخ وجهه حتى صار اشبه ما يكون بكرة منفوخة تكاد ان تنفجر . ثم قال :

– عندى اشياء ثمينة من كل نوع : قطع من الماس بحجم البيضة ، ولآلئ بحجم الجوزة ، كل هذه النفائس استطعت ان احصل عليها بثمن فاحش ولكن ما قيمة كل هذه الاشياء ؟! لست الوحيد الذى يملك امثالها ومن ثم فان تكديس اللؤلؤ والماس شيء عادى ، اما هذه الحبة فهى فريدة من نوعها فى العالم ! . . . انها سوف تزهر وسوف تبرهن على اننى ارفع الناس ذوقا واوسعهم غنى ! ها ! ها! ها !

ذهب ذلك الغنى الى الصياد واشترى منه الحبة وزرعها فى جرة من ذهب . ثم استقدم من اجلها خاصة اربعة بستانيين مشهورين للعناية بها اختيروا فى مسابقة اشترك فيها اكثر من ثلاثمائة خبير زراعى . كانت المسابقة صعبة ، والاسئلة منوعة دقيقة حول زراعة جميع الازهار ولكن هؤلاء الاربعة اجابوا عن جميع الاسئلة اجابة قوية مقنعة . وبعد ان وقع الاختيار عليهم منحوا اجرة مغرية جدا وقدمت لهم علاوة الاقامة لكى يتفرغوا لعملهم بقلوب مطمئنة .

كرس هؤلاء البستانيون كل وقتهم وكل جهدهم لهذا العمل وراحوا يتناوبون على رعاية الجرة والعناية بها ليلا نهارا دون انقطاع ولو دقيقة واحدة او ثانية واحدة . فاستخدموا كل معرفتهم ومهارتهم ، واستعملوا اجود التربة وافضل الاسمدة ، سقوها وعرضوها للشمس فى اوقات محددة ، وخلاصة القول انهم بذلوا كل ما استطاعوا من جهد ومعرفة .

وراح الغنى يحدث نفسه : الاهتمام على هذا الشكل بهذه الحبة سوف يحقق لها برعمة وازهارا فى اقصر مدة . وعندما تزهر سوف اقيم حفلة استقبال ، ادعو اليها كل من هم فى مستوى ثروتى وجاهى لأريهم زهرتى هذه النادرة المثال والجمال الوحيدة فى هذا العالم ، وهكذا سينظرون نظرة احترام الى ثروتى العريضة وعلو منزلتى !

هكذا كان يفكر وكلما اغرق فى التفكير ازداد قلقا ونفد صبره وراح يراقب الجرة

الفينة تلو الفينة .

ولكن اين هذا البرعم الاخضر كالزمرد ؟! لم يكن هناك فعلا الا جرة من ذهب مليئة بالطين الاسود .

كان الوقت يمر بسرعة كأنه يعدو عدوا وكأن السنتين التفاتة خاطفة . وفى الربيع عندما جاء وقت الحفلة راح الرجل الغنى يتوسل الى الجرة :

ــ اريد ان ادعو ضيوفا ، ساعدينى ، برعمى بسرعة وازهرى !

وفى الخريف عندما جاء وقت الحفلة راح يتوسل الى الجرة من جديد :

ــ اريد ان ادعو ضيوفا مرة اخرى ، ساعدينى ، برعمى بسرعة وازهرى !

ولكن عبثا . عندئذ غضب الغنى وهتف قائلا :

ــ هذه الحبة ميتة ، انها نتنة دميمة ، ما فائدتى منها ؟!

ثم راح يحفر الطين ليخرج الحبة التى ظلت كما كانت كبيرة فى حجم الجوزة وغلافها اخضر لماعا . وما ان رآها حتى ازداد غضبا فرماها بكل ما اوتى من قوة من فوق السور .

طارت الحبة من فوق السور وسقطت امام دكان ، والتقطها التاجر وقال فرحا :

ــ حبة فريدة من نوعها سقطت امام دكانى ! انها بشارة السعادة والثروة !

قال هذا ثم زرع الحبة بجانب دكانه ، كان يأمل فى انها سوف تبرعم وتزهر بسرعة فكان يذهب لمشاهدتها كلما فتح دكانه فى الصباح ويعود ليلقى عليها نظرة كلما اغلق دكانه . ومرت السنة سريعة ولكن البرعم الاخضر الزمردى لم ينبت . فغضب التاجر وهتف قائلا :

ــ انا غبى حقا لأننى ظننت انها حبة فريدة من نوعها وفى الواقع انها حبة ميتة نتنة ودميمة ! الآن ادركت الحقيقة ، لن اضيع بعد اليوم جهدى فى مثل هذا العمل التافه .

عندئذ اقتلع الحبة ورماها فى الشارع .

بقيت الحبة فى الشارع بعض الوقت حتى جاء الزبال فوضعها مع الزبالة فى عربته

الصغيرة ثم رمى كل ما فيها قرب الثكنة .

التقطها جندى وقال لنفسه فرحا مسرورا :

ـ هذه الحبة الفريدة انا وجدتها ، لاشك فى انها سوف تجلب لى ترفيعا فى الرتبة !

ثم زرع الحبة قرب الثكنة . كان يأمل فى انها سوف تبرعم وتزهر بسرعة . وكان كلما عاد من التدريب يقرفص بجانبها ينظر اليها وهو يستند الى بندقيته . وعندما كان الجنود يسألونه عن سبب جلوسه القرفصاء فى ذلك المكان مرة تلو المرة يظل صامتا ولا يبوح بالسر .

مرت سنة ولكن دون ان يظهر البرعم الاخضر الزمردى !

غضب الجندى وهتف قائلا :

ـ انا غبى حقا لأننى ظننت انها حبة فريدة من نوعها وفى الواقع انها حبة ميتة نتنة ودميمة . الآن ادركت الحقيقة ، لن اضيع بعد اليوم جهدى فى مثل هذا العمل التافه !

عندئذ اقتلع الحبة ورماها بعيدا بعيدا بكل ما استطاع من قوة .

راحت الحبة تطير كأنما هى تركب طائرة . . . طارت وطارت . . . واخيرا سقطت فى وسط حقل من القمح ما زال اخضر .

فى الحقل كان فلاح شاب احرقت جلده الشمس ، حتى صار شديد السمرة مفتول الساعدين كأنما هو تمثال لبطل رياضى . كان يعزق ارض حقله ، وعندما رفع رأسه ليسترد انفاسه لاحت منه التفاتة فارتسمت على شفتيه بسمة عذبة .

لقد رأى الحبة تسقط فهتف قائلا :

ـ اوه ! انها حقا حبة رائعة فلأزرعها !

تناول الحبة ثم حفر لها حفرة صغيرة ثم دفنها فيها .

تابع الفلاح الشاب عمله كالمعتاد . يقلب الارض عندما تحتاج الى قلب ، يعزقها عندما تحتاج الى عزق ، يسقيها عندما تحتاج الى رى ، لايميز بين الموضع الذى زرع فيه الحبة وبين اى موضع آخر من الحقل .

ما كادت تمضي بضعة ايام على دفن تلك الحبة حتى برز من حفرتها برعم في حجم الخنصر طرى ، اخضر كاليشب الاخضر ! وماكادت تمضى بضعة ايام اخرى حتى استطال ساق النبتة الجديدة وتشعبت اغصانها ، وهكذا بدأت ترتفع فى الحقل شجيرة صغيرة كأنما هى تمثال حى من اليشب . وسرعان ما ظهر فى احد اغصانها برعم زهرة . برز فى البدء بحجم الجوزة ثم نما ونما حتى صار بحجم البرتقالة اليوسفية ثم بحجم التفاحة ثم بحجم الليمون الهندى ثم بحجم البطيخة .

عندئذ تفتح . . .

كانت تويجاته حمراء لا تحصى صفوفها ، اسديته ذهبية لا يمكن عدها ، يفوح منها جميعا عطر قوى لا مثيل لأريجه . وكان هذا العطر يعلق بكل من يقترب من الزهرة يعلق به ولا يتلاشى .

ظل الفلاح الشاب يتابع اعماله اليومية ، غاديا الى حقله عائدا منه ، كلما مر بقرب تلك الزهرة الفريدة توقف برهة يتأمل تلك الزهرة ويتأمل تلك الاوراق وعلى شفتيه ترتسم بسمة عذبة .

جاء الفلاحون جميعا يشاهدون تلك الزهرة الفريدة وعندما كانوا يعودون كانت وجوههم تشرق ببسمة عذبة ، اجسادهم تفوح عطرا !

— عام ١٩٢١ —



الشحرور

فى قفص من ذهب عاش شحرور !

اشعة الشمس تنعكس على قضبان قفصه فترسل بريقا خاطفا متلألئا يفوق بجماله جمال القصور الملكية . كأسه من الزمرد الاخضر وشرابه ماء اصفى من بحيرة اللوطس بعد المطر . وصحنه من العقيق اليمانى بلون الكستنا تماما ..

وفى القفص ثلاثة قضبان افقية من عاج يجثم فوقها الشحرور كلما شاء ، والملاءة التى كانت تغطى القفص فى المساء لتحميه من البرد صنعت من اثمن المطرزات الحريرية .

اما الشحرور نفسه فان ريشه كان لماعا صقيلا لم تسقط منه ريشة واحدة ، لأنه يتناول اجود الغذاء ويستحم مرتين كل يوم .

كان مسكنه مريحا جدا ، وطعامه موفورا ، وجسمه نظيفا دائما ، لهذا كان يقفز فى القفص من هنا الى هناك . كلما تعب من القفز وقف فوق القضبان العاجية يأخذ قسطا من الراحة ، تارة فوق هذا العود وطورا فوق العود الآخر . ثم يبدأ بتلميع ريشه بمنقاره ريشة ريشة ثم ينتفض يحرك جناحيه يتلفت كل صوب بنشاط وحماسة ثم يعود من جديد الى قفزاته الرشيقة .

غناؤه كان عذبا جميلا متنوع الالحان ، يسحر سامعيه فينتشون منه كأنهم شربوا شيئا من الخمر .

صاحب هذا الشحرور كان ولدا من اسرة غنيـة يحب هذا الطائر مثـل روحه . فيجلب له الماء بنفسه من الينابيع الجبلية ، ثم يصفيه ويصفيه . ويقدم اليه

حبوب الكستنا التى جمعها بنفسه حبة حبة يختار منها الحبوب الممتلئة المستديرة ثم يغسلها ويضعها امامه .

لماذا كان هذا الولد ، ابن الاسرة الغنية ، يهتم كل هذا الاهتمام بشحروره ؟!

السبب هو انه يحب صوت هذا الشحرور . فكلما غنى غمرت الولد موجة من السرور لايمكن وصفها !

اما الشحرور فانه يعرف ان ابن الاسرة الغنية يعامله معاملة جيدة وان هذا الولد يحب اكثر ما يحب ان يسمع صداحه ، لهذا كان يصدح بلا انقطاع ليطرب ابن الاسرة الغنية . لا يتوقف عن الغناء حتى وان احس بالتعب .

ظل الشحرور عاجزا عن فهم سر اللذة التى يجدها سامعوه عندما يفتح فمه ويرسل الحانه ! ولم يستطع ان يدرك ما هى المشاعر التى كانت تنتاب ابن الاسرة الغنية عند سماع صداحه ولكنه يعرف ان الولد يحب ان يسمع غناءه بكل جوارحه ، لهذا كان الشحرور يغنى له ومن اجله .

كان ابن الاسرة الغنية يقول مرارا لاخوته واخواته :

— شحرورى رائع الجمال ، صوته جميل جدا ، تعالوا استمعوا اليه !

كان الاخوة والاخوات يأتون فيتحلقون حول القفص ليشاهدوا الشحرور ويسمعوا غناءه ، فرحين مسرورين لاهجين بالشكر والثناء .

راح الشحرور يفكر : لا اعرف حقا ما هو السر فى انهم يحبون الاستماع الى صوتى ؟ ولكن هؤلاء جاءوا بدعوة ابن الاسرة الغنية فاذا لم يستقبلوا استقبالا لائقا فقد يتألم صاحبه ولهذا كان الشحرور يغنى لارضائه .

مرت الايام تباعا رتيبة وان ظلت هادئة ومريحة . وظل الشحرور يغنى بلا انقطاع لابن الاسرة الغنية ولاخوته واخواته ولكنه ظل لا يفهم ما معنى هذا الغناء المستمر واللذة فيه !

التبست الامور فى ذهنه وظل يتحين الفرصة ليفهم ما معنى غنائه ! وذات يوم حمل اليه ابن الاسرة الغنية الماء والطعام ولكنه نسى ان يغلق باب القفص عندما غادر .

فتقدم الشحرور من الباب الذى ظل مفتوحا ، تلفت حوله هنا وهناك ثم قفز . . . هب ! ! ! ها هو خارج القفص ! ثم قفز الى السطح كالسهم وراح يتطلع فى ما حوله : يا له من منظر جديد وجميل ! السماء زرقاء صافية ، السحب تتهادى مثل اشرعة صغيرة بيضاء . واغصان الصفصاف الخضراء تتراقص .

وتساءل : لمن هذا البستان الذى تبدو شجرة الخوخ المزهرة فيه كوكبة من نار ؟

وارسل نظره الى بعيد : الجبال تتمنطق بحزام من الضباب الخفيف كأنما الناظر اليها يستيقظ من نوم عميق وما يزال يغالب النعاس فلا يرى الاشياء بوضوح . وكان الشحرور كلما امعن النظر ازداد فرحا وراح يقفز من مكان الى مكان ثم توقف وراح يجوب الآفاق بعينيه . . .

رقص قلبه فرحا ، نسى القفص ، نسى حياته الماضية ، انتشى طربا فطار دون ان يدرى اين يتجه ولكنه طار .طار فوق السهول الخضراء ، طار فوق الاراضى الواسعة المغطاة بالرمال الصفراء ، طار فوق نهر اليانغتسى ذى الأمواج المرتفعة الملتصقة بالسماء ، طار فوق النهر الاصفر ذى المياه المنسابة العكرة . واخيرا قرر ان يستريح بعض الوقت فطوى جناحيه ثم حط فوق برج من ابراج سور يحيط بمدينة عظيمة . نظر الى تحت فرأى شوارع ومشاة وعربات . . . مدينة مكتظة بالناس يروحون ويغدون امام ناظريه .

هناك مشهد غريب بدا يلوح امام عينيه .

فى احد الشوارع كان رجل يستلقى فى صندوق خشبى ذى عجلتين واحدة عن يمين وثانية عن شمال .

وكان رجل آخر امام العربة يجرها مسرعا فى عدوه . لم تكن هذه العربة وحيدة ، بل كان وراءها موكب من العربات يتبعها .

اخذ الشحرور يحدث نفسه : هذا الشخص المستلقى فى العربة قد يكون بلا ساقين والا ما الداعى لأن يجره شخص آخر ؟

ثم راح يحدق بانتباه فرأى ان اولئك الاشخاص الذين يستلقون فى تلك الصناديق

يغطون الجزء الاسفل من جسدهم ببطانيات ملونة ولكن احذية سوداء من احدث النماذج كانت تبرز من تحتها بلماعة مشعشعة . اذن لهؤلاء الناس سيقان ايضا ! ما الداعى اذن لأن يجرهم آخرون ؟! هذا يعنى ان خمسين فى المائة من هؤلاء الناس هم بلا فائدة ، وهكذا كلما امعن فى التفكير امعن فى الحيرة .

" هؤلاء الذين يجرون غيرهم ربما هم يجدون لذة فى هذا العمل ! " ولكنه عندما امعن النظر عن قرب وجد ان تقديره خاطئ . كانت وجوههم محتقنة حمراء ، عرقهم يتصبب غزيرا مدرارا ، من ظهورهم تصاعد البخار كأنهم قد خرجوا من قدر بخارية قبل لحظة . كانوا يتقدمون بخطوات واسعة وقد انحنت قاماتهم مثل نعامات تفر مذعورة ، فما تكاد قدمهم تطأ الارض حتى تقفز القدم الثانية الى الامام .

" لماذا هم يحثون الخطى بمثل هذه السرعة ؟ !اين يقصدون ؟! " لم يستطع الشحرور ان يفهم .

فى تلك اللحظة شاهد شخصا مستلقيا فى الصندوق يشير باصبعه نحو اليسار ، عندئذ توقف الشخص الذى يجرى ثم انعطف بجسمه وبعجلتى العربة وبالشخص المستلقى ثم تابع عدوه باتجاه الاشارة .

عندئذ فهم الشحرور : اذن ، الذين يركضون انما هم يركضون من اجل غيرهم ، فليس مستغربا ان تكون اساريرهم متجهمة وليس مستغربا ان لا يغنوا الاغانى الجميلة الايقاعية للركض ، ذلك لأنهم لا يجدون فى هذا الركض معنى ولا لذة !

احس بالحزن العميق عندما ادرك ان بعض الناس تحولوا الى اقدام للآخرين ، فانطفأت فى اعماق قلبه جذوة الفرح . وبدأ عندئذ يغنى بتأثر شديد ، معبرا فى الحانه عن حزنه لمرأى هؤلاء التعساء ولجهودهم المسخرة لخدمة الآخرين ، ولاضطرارهم للقيام بأعمال لا معنى لها ولا لذة .

لم يستطع احتمال مثل هذه المشاهد المؤلمة فقرر ان يرحل الى مكان آخر يستريح فيه بعض الوقت .

ما كاد ينطلق حتى حط على شرفة بيت كبير ذى طابقين ، مدهونة باللون الاخضر .

امام الشرفة غرفة واسعة راح يسترق النظر اليها من خلال النافذة : عدد من الاغنياء كانوا يأكلون حول مائدة . كانت المائدة مغطاة بشرشف سفرة بلون الثلج الناصع والسكاكين والشوك والاقداح واطباق الخزف الملون من كل حجم تشعشع ببريق يبهر الانظار . وفى وسط المائدة انتصبت مزهرية تحمل باقة من الأزهار المتعددة الالوان الفواحة العطر . اما الاشخاص الذين جلسوا حول المائدة فقد كانت وجوههم محمرة وعيونهم نصف مغمضة لأنهم ، على ما يبدو ، كانوا يتلذذون بطعم الخمرة .

من الطابق الارضى كانت جلبة تسمع ، فالتفت الشحرور ذلك الصوب : المشهد مختلف .

فوق لوحة خشبية وبالقرب من سكين تمددت سمكة بلا رأس ولا ذنب ، وبقربها كومة من اللحم المقطع وعدد من الجمبرى المقشر ، واجزاء من دجاج وبط مبعثرة . وبالقرب من الخشبة تكومت بلا نظام جرار ودلاء واطباق وطاسات وصحون صغيرة وملاعق وزجاجات من كل نوع وفحم وقطع من الخشب .

فى الغرفة كان عدد من الاشخاص ذوى اجساد محمرة براقة منهمكين تغلفهم سحب من دخان وبخار . كان احدهم امام الموقد الملتهب يقلى شيئا فى المقلاة وما كاد يسكب الزيت حتى ارتفعت فجأة من حول المقلاة كتلة من لهب شوى وجهه وساعديه فأصبحت جميعا حمراء بلون الجمر . وعندما جهزت الاطباق وضعت فوق صينية من خزف ملون وجاء رجل يرتدى الابيض فتناولها ثم اصعدها الى الطابق الثانى ، حيث انطلقت ضحكات المرح والغبطة وراحت السكاكين والشوك تلتمع فوق المائدة .

راح الشحرور يفكر : هؤلاء الاشخاص فى الطابق الارضى هم بلا شك مرضى . والا فلماذا يشوون اجسادهم على نار من الصباح حتى المساء ؟! ولكن ربما هم يجدون معنى او لذة فى بقائهم واقفين منهمكين طول الوقت ؟!

ولكنه عندما امعن النظر عن كثب وجد ان تقديره خاطئ تماما .

فيستمر فى تفكيره : اذا كانوا يشعرون بالبرد فلماذا لا يذهبون الى بيوتهم يلتحفون الاغطية الدافئة ؟! واذا وجدوا فى هذا العمل معنى ولذة فلماذا لا يلوح على وجوههم

اى ظل لابتسامة ؟! لماذا لا يأكلون هم مما يطبخون ؟! انهم ينفذون اوامر الشخص اللابس الثوب الأبيض بوجوه متجهمة متراكضين هنا وهناك ليغسلوا اشياء ويقلبوا اشياء فوق النار . واذا ما كانوا منشغلين فليس معنى هذا انهم يرغبون فى ذلك وانما لأن هناك اشخاصا آخرين يرغبون فى ان يأكلوا .

احس بالحزن العميق عندما ادرك ان بعض الناس قد تحولوا الى آلات تعد الطعام لاناس آخرين ، فانطفأت فى اعماق قلبه بقايا الفرح وراح يغنى عندئذ بتأثر شديد ، معبرا فى الحانه عن حزنه لمرأى هؤلاء التعساء ولجهودهم المسخرة لخدمة الآخرين ولاضطرارهم للقيام بأعمال لا معنى لها ولا لذة .

لم يستطع احتمال مثل هذه المشاهد ، فقرر ان يرحل الى مكان آخر يستريح فيه بعض الوقت ، وهكذا نشر جناحيه وطار .

طار حتى زقاق ضيق متعرج فى غاية الهدوء ، تنطلق منه الحان قيثارة شجية وصوت صبية . هناك طوى جناحيه وحط فوق سطح احد البيوت . ومن خلال طاقة فى السطح راح ينظر الى تحت ، رأى شخصا ضخما يجلس على كرسى ويعزف على قيثارة بينما وقفت الى جانبه فتاة فى الثالثة عشرة او الرابعة عشرة تغنى .

عندئذ راح يفكر : هذه المرة استطيع ان اشاهد اشخاصا سعداء ! انهم يغنون ويعزفون ، معنى هذا انهم يتذوقون الموسيقى . ولكنى اريد ان اعرف الى اى مدى هم سعداء !

ثم راح يصغى ويراقب عن كثب .

لم يستطع ان يصدق ان تقديره كان خاطئا وانه فشل للمرة الثالثة فى حدسه ، اذ كلما اوغلت الصبية فى الغناء ازداد صوتها ارهاقا وارتفاعا واحتقن وجهها وكلما وصل صوتها الذروة تقطب حاجباها مرة تلو المرة وانتفخت عروق جبينها وراح صدرها يرتفع وينخفض وهى تكاد لا تلتقط انفاسها . واخيرا بدأ الايقاع وئيدا وئيدا ، لكن كلمات الاغنية شديدة التعقيد فراح الصوت ينساب متتابعا كالماء الجارى حتى كادت الصبية تعجز عن استرداد انفاسها ولذا بدا صوتها مبحوحا الى حد ما .

وعندما توقف الغناء وعزف القيثارة قطب الشخص الضخم حاجبيه وجحظت عيناه ثم صرخ فى وجه الفتاة :

ـ اذا غنيت بهذا الشكل فكيف تحصلين على المال ! اعيدى !

احنت الفتاة رأسها وراحت الدموع تسح من عينيها ، ثم عادت تغنى من جديد على ايقاع القيثارة بانتباه اكثر ولكن صوتها ظل يرتعش قليلا قليلا .

عندئذ فهم الشحرور : اجل ، هى تغنى ايضا لغيرها . ولو خيرت لاختارت العودة الى بيتها تستريح فيه . ولكن لا سبيل لذلك لأن الآخرين يحبون ان يسمعوا الغناء ولأنها تكسب المال من الآخرين ، ولهذا كان عليها ان تتابع التدرب مهما كان مرهقا . اما عازف القيثارة فانه يعزف ايضا للآخرين ، ولذا هو يعزف ويحث الفتاة على مصاحبته بغنائها . اما ما معنى هذا وما اللذة فيه فانهما لن يخطرا لهما حتى فى الاحلام !

احس بالحزن العميق عندما ادرك ان بعض الناس قد تحولوا الى آلة موسيقية لاناس آخرين ، فانطفأت فى صدره كل بهجة ، وعندئذ راح يغنى بتأثر شديد ، معبرا فى الحانه عن حزنه لمرأى هؤلاء التعساء ولجهودهم المسخرة لخدمة الآخرين ولاضطرارهم للقيام بأعمال لا معنى لها ولا لذة .

قرر الشحرور ان لا يعود الى بيت ابن الاسرة الغنية ، ومع ان القفص كان فاخرا كقصر ملكى الا انه لم يعد يرغب بالبقاء فيه . لقد اصبح الآن مدركا واعيا لأنه شاهد الكثيرين من الناس التعساء البؤساء . وبدأ يعرف الآن ان حياته السابقة كانت حياة يرثى لها ايضا . فاذا كان الغناء لامعنى له ولا لذة فيه ، اذن فلا داعى أن يغنى ! لماذا عليه ان يغنى لابن الاسرة الغنية واخوته واخواته ؟ فى البدء كان جاهلا يعتقد ان هذا النوع من الحياة مقبول الى حد ما . ولكنه بعد ان رأى اناسا يستحقون الشفقة مثله ، اخذ يزداد ألما كلما امعن فى التفكير ! ولم يستطع ان يملك نفسه فبكى ، تساقطت دموعه قطرة قطرة حتى غدا شبيها بطائر الوقواق الذى تحزنه ابسط الامور .

فطار محلقا هائما فى الفضاء الواسع . وفى المساء حط فى غابة كثيفة . فاذا جاء

النهار طار حيثما شاء واذا طاب له الغناء غنى كيفما شاء واذا جاع التقط ثمارا برية اينما وجدت ، واذا وجد جسده وسخا قصد الجدول فاستحم فيه . ولم تعد قضبان القفص تطوقه وتأسره ، فهو الآن طليق حر التصرف .

كان يصادف احيانا اشياء محزنة تحز فى نفسه ولكنه سرعان ما كان يجلو همومه بصداحه العذب . وليس غريبا انه كلما غنى استعاد صدره انشراحه ، وتبدد حزنه مثلما يتبدد ضباب الصباح ، واذا لم يغن احس بالاختناق والانقباض . لقد اصبح الآن يدرك معنى الغناء ولذة الغناء .

فى هذا العالم اشياء مكدرة وظروف مزعجة سواء فى المدن او الارياف ، فى الاكواخ او القصور . وكلما صادف الشحرور امثال هذه الاشياء والظروف احس بالالم ولم يجد بدا من ان يغنى غناء مؤثرا . فاذا غنى الآن فهو يغنى لنفسه ، يغنى لكل الاشياء المكدرة ولكل الظروف المزعجة التى تستحق ان يغنى لها . ولم يعد قط يغنى لشخص واحد او لعدد محدد من الناس .

عندما كان الشحرور يغنى كان صوته يعتلى صهوة السحاب ؛ ينساب مع النسيم ، ينتشر فى كل جهة . العمال فى المصانع ، الفلاحون فى الحقول ، النساء الغزالات ، الركشاويون العداؤون ، الثيران المسنة التى فقدت اسنانها ، الخيول الهزيلة التى اصبحت جلدا على عظم ، القرود الرقاصة ، الحمام الزاجل الذى ينقل الرسائل عبر الفضاء الواسع . . . كل هؤلاء كانوا يفرحون ويطربون لسماع صوت الشحرور ينسون ارهاقهم الجسدى وهمومهم النفسية ، يرفعون جميعا رؤوسهم باتجاه الصوت والبسمة ترتسم على شفاههم قائلين :

— ما اعذب هذا الصداح ! هذا شحرور رائع حقا !

— عام ١٩٢٢ —



فزاعة الطيور

كان ما كان

كان هناك شاعر ينظم ، اثناء النهار ، القصائد الجميلة فى وصف الريف ومباهجه .

وكان هناك رسام يبدع من هذا الريف لوحات فنية نابضة بالحياة .

فاذا جاء المساء راح الشاعر يشرب فتستولى الخمرة على لبه . وكان الرسام يتناول آلة موسيقية بديعة يعزف عليها ألحانا هادئة عذبة . ولكن احدا منهما لم يجرب ان يلقى نظرة على الريف فى الليل .

أ ليس هناك انسان يعرف العالم بمناظر الريف الليلية ؟

بلى ، كانت هناك فزاعة الطيور !

صنع هذه الفزاعة الفلاحون بأنفسهم . هيكلها من اغصان غيضة البامبو وحشوتها من قش قديم . قبعتها احيانا سلة بالية من الخيزران او ورقة لوطس ذابلة . وجهها مسطح لا تستطيع ان تميز فيه انفا ولا عينين . يداها بلا اصابع . ومع ذلك فقد كانت تمسك بمروحة قديمة ، اذا جاز لنا ان نستعمل كلمة " تمسك " ، لأن مقبض المروحة كان معلقا بخيط فحسب يتدلى من يد الفزاعة . كان هيكل هذه الفزاعة طويلا جدا لأن ساقيها ربطا الى قطعة من عمود خشبى غرسه الفلاحون فى الارض لتثبيت الفزاعة واقفة ليلا نهارا .

كانت الفزاعة مخلصة فى مهمتها فاذا قورنت بالثور بدا الثور اكسل منها ، لأن الثور احيانا يستلقى على الارض او يرفع رأسه يتطلع الى السماء . واذا قورنت بالكلب بدا الكلب اثقل ظلا منها لأن الكلب احيانا يركض مثل مجنون صغير حتى ليتعب

صاحبه فى البحث عنه .

الفزاعة لم تكن كذلك . ليست مثل الثور الذى يربض ليتطلع الى السماء ، ولا مثل الكلب اللعوب الذى يركض كالمجنون الصغير . كانت تراقب الحقول بسكون بينما تتراقص المروحة فى يدها بهدوء ، طاردة عصافير الدورى التى تهاجم سنابل الرز الوليدة . لا تأكل ولا تنام ايضا ولم تحاول ان تجلس لتستريح قليلا ، تظل دائما مكانها منتصبة القامة .

لذا كان من الطبيعى ان تكون الفزاعة وحدها عارفة بكل تفاصيل مناظر الريف واحداثه الليلية . فتعرف كيف ينتشر الندى على الاوراق ، وكم هو فواح عذب . تعرف كيف تتغامز النجوم ، وكيف يبتسم القمر ، تعرف اعماق الهدوء الذى يسود الحقول ليلا ، والى اى حد تستغرق الزهور والنباتات والاشجار فى نومها ، تعرف كيف تتزاور الحشرات ليلا ، وكيف تتبادل الفراشات الحب ، والخلاصة كانت الفزاعة تعرف مملكة الليل بكل تفاصيلها معرفة كاملة .

وهذه بعض مشاهدات الفزاعة الليلية :

فى ليلة تألقت نجومها كانت الفزاعة تحرس الحقول وكانت المروحة تتراقص بلطف فى يدها . سنابل الرز الوليدة بدأت تشكل ارتالها مشعشعة فى ضوء النجوم كأنما هى قد غطيت بطبقة ناعمة من لؤلؤ الندى ، فاذا ما هبت نسمة تمايلت وتعانقت محدثة حفيفا ناعما . كانت الفزاعة فى غاية السعادة لأنها حارسة ذلك الحقل . راحت تفكر فى البسمة التى سوف تشرق فى وجه صاحبة الحقل العجوز المسكينة لأن السنابل بغلال وفيرة . وماذا لقيت هذه العجوز التاعسة من الدنيا فى الماضى حتى لم ترتسم البسمة على وجهها ؟! قبل ثمانى او تسع سنوات مات زوجها . وكلما فكرت فيه راحت تنتحب حتى تقرحت اجفانها وعشيت عيناها . ولم يكن لها الا ولد وحيد عملت واياه يدا بيد لاستغلال هذه القطعة الصغيرة من الارض ولم تتخلص من ديون المصاريف المترتبة على دفن الزوج الا بعد ثلاث سنوات من الجهود المبذولة . ولكنها لم تتوقع ان ابنها يلحق بأبيه على اثر حمى الخناق ؟ حطمت هذه النكبة الجديدة قلبها الذى اصبح معرضا

بين الحين والحين الى نوبات حادة .

الآن هى وحدها ، عجوز بلا حول ولا قوة ، ولكن كان عليها ان تعمل فى حقلها بنفسها ، وان تبذل الجهود المتواصلة طوال ثلاث سنوات لايفاء الدين الناجم عن دفن ولدها . ثم حدثت الفيضانات عامين متعاقبين ، فأغرقت الرز وتعفنت السنابل . ازدادت اجفانها تقرحا وشح نظرها حتى لم تعد تستطيع ان ترى بوضوح الاشياء الصغيرة او الاشياء البعيدة . تغضن وجهها حتى بدا مثل برتقالة عجفاء . من اين اذن تأتى البسمة الى شفتيها ؟! ولكن الرز هذه السنة ينمو جيدا ، نشيطا قويا والامطار لم تزد عن الحد المطلوب . يبدو ان الغلال ستكون وفيرة . فاذا جاء الحصاد قريبا فانها سوف ترى بعينيها ان السنابل كبيرة سمينة وانها ستكون لها وحدها ، وان جهودها المضنية لم تذهب ادراج الرياح عندئذ ، وبكل تأكيد سوف تتلاشى الغضون من وجهها وسوف ترتسم على شفتيها ابتسامة الرضى . فاذا ارتسمت هذه البسمة فعلا ، قريبا ، فان هذه البسمة ستكون فى نظر الفزاعة اثمن واحلى من ابتسامة القمر والنجوم وذلك لأن الفزاعة كانت تحب صاحبتها العجوز .

بينما كانت الفزاعة غارقة فى تأملاتها هذه رفت بقربها فراشة صغيرة ذات لون اصفر فاتح . ادركت الفزاعة حالا ان تلك الفراشة هى عدوة للرز ، اذن هى عدوة للعجوز صاحبة الحقلة ، واحست ، انطلاقا من وظيفتها وحبها للعجوز ، أن عليها ان تطرد تلك الفراشة . عندئذ بدأت تلوح بالمروحة المعلقة بيدها . ولكن الهواء المنبعث من حركة المروحة كان ضعيفا لا يكفى لافزاع الفراشة ويبدو ان الفراشة لم تشعر بأن المروحة تحاول طردها فحطت على ساق نبتة رز دون اى اكتراث او وجل . وما ان رأتها الفزاعة تحط على نبتة رز اخرى حتى اخذ القلق يساورها . ولكن جسمها كان شبيها بشجرة راسخة فى الارض لا تستطيع ان تتحرك شبرا واحدا من مكانها . اخذت المروحة تبذل كل جهودها فى حركة مستمرة ولكن الفراشة لم تعرها أدنى اهتمام .

اخذت الفزاعة تتصور المنظر القاتم الذى سوف يبدو فيه هذا الحقل ، تتصور وجه العجوز البائسة الذى تتشابك فيه الاخاديد واجفانها المقرحة ، وتتصور المصير

التاعس الذى ينتظر العجوز صاحبة الحقلة . عندئذ احست الفزاعة كأن خنجرا يغرس فى صدرها ولكن تلك الفراشة لم تكن تفكر فى مغادرة مكانها اذ ظلت ساكنة جامدة لاتتحرك .

وعندما آبت النجوم الى منازلها وتلاشت مملكة الليل طارت الفراشة الصغيرة .

امعنت الفزاعة النظر فى ساق النبتة التى حطت عليها الفراشة ، فوجدت ان الوريقات الخضراء فى اعلى الساق قد انطوت ومالت ، ورأت على ساق نبتة بيوضا كثيرة خلفتها الفراشة وراءها. ولذا افزع هذا الاكتشاف الفزاعة واقلقها فراحت تتصور مدى الكارثة الناجمة عن هذه البيوض وراحت تزداد قلقا وخوفا .

لقد اصبحت العجوز كليلة النظر فلا تستطيع ان تنتبه الى مثل هذه البيوض الصغيرة ، لذا كان على الفزاعة ان تنذرها لتتلافى الكارثة . راحت المروحة تزداد حركة وخفقانا واخذت فى حركتها تلطم جنب الفزاعة مرسلة حفيفا متواصلا . لم تكن الفزاعة قادرة على الكلام ، ولم تكن لديها الا هذه الوسيلة لتحذير صاحبة الحقل العجوز .

فى اليوم الثانى جاءت العجوز الى الحقل ، انحنت لترى اذا كان مستوى الماء كافيا دون الحاجة الى الاستعانة بمياه النهر . ثم القت نظرة على شتلات الرز التى غرستها بيديها ، كانت كلها نشيطة قوية . جست السنابل فوجدتها ممتلئة ثقيلة . ثم القت نظرة على الفزاعة . قبعتها لا تزال ثابتة ، مروحتها تتهادى دائما محدثة ضجة خفيفة كلما لامست العمود الخشبى ، وبالاضافة الى ذلك ظلت الفزاعة ثابتة ، منتصبة القامة ، لم تتحرك من مكانها . كل شىء مازال على حاله ولم يتغير شىء .

اطمأنت العجوز الى ان كل شىء يسير سيرا طبيعيا فاتجهت نحو طرف الحقل فى طريقها الى بيتها لتضفر حبلا من القش .

عندما رأت الفزاعة ان صاحبة الحقل تستعد للعودة الى بيتها ، ازدادت قلقا واضطرابا وراحت تحرك مروحتها اكثر فأكثر للفت نظر العجوز بهذه الحركة المتسارعة وكأنها تقول لها : يا سيدتى ، لا يجوز ان تذهبى ، لا يجوز ان تعتقدى ان كل شىء فى الحقل على ما يرام . لقد زرعت كارثة مقبلة بذورها فى حقلك . سوف تنتشر فى كل

مكان وعندئذ لن تستطيعي ايقافها وعندما يحدث هذا سوف يزداد تقرح اجفانك حتى تنضب الدموع من عينيك ، سوف يتحطم قلبك . اذا انت اتلفت بذور هذه الكارثة الآن فما فات الأوان بعد . امسكي ساق هذه النبتة وانظرى الى سطح اوراقها .

جددت الفزاعة بخفقان مروحتها تحذيرها للعجوز ولكن كيف تستطيع ان تفهم العجوز كل هذه الحركات ؟! لهذا تابعت سيرها بخطى وئيدة فقلقت الفزاعة حتى الاختناق واستمرت تلوح بمروحتها حتى غاب شبح العجوز عن الانظار . عندئذ ادركت الفزاعة ان جهودها بلا جدوى !

لم يكن احد يهتم بنبتات الرز ماعدا الفزاعة . واحست بكره لواقعها الذى لايسمح لها بأن تثب على هذا الوباء وتقضى عايه ولهذا الوضع الذى لا يسمح لها بأن توصل على اجنحة الريح رسالة الى العجوز تستدعيها لتعود بسرعة لتقضى على هذه الكارثة فى مهدها . لم تكن حالة الفزاعة الصحية دائما جيدة وها هى الآن بدأت تتدهور بسبب الهم والقلق ، بدا على ملامحها الشحوب والكأبة . حتى انها لم تعد تقوى على الوقوف منتصبة ، بدأ كتفاها يتهدلان وراح جسمها ينحنى نحو الامام . لقد بدت عليها علائم الشخص المريض فعلا !

لم تمض ايام قلائل حتى امتلأ الحقل بفراشات صغيرة صفراء فاتحة اللون . وكانت الفزاعة تشاهدهن فى اعماق الليل يرتشفن نسغ نباتات الرز وهن يتراقصن فى نشوة وطرب. وبدأت السنابل رويدا رويدا تذبل وتطأطئ هاماتها ، والاوراق تفقد لونها الاخضر ثم تجف وتصفر . لقد ادمى هذا المنظر قلبها ، ولم تستطع الاستمرار فى متابعة هذا المشهد . وراحت تفكر كيف ان جهود العجوز فى هذه السنة لن تتحول الا الى دموع جديدة وزفرات جديدة ، فلم يعد فى وسع الفزاعة عندئذ الا ان تحنى رأسها وتستسلم للبكاء .

فى تلك الفترة كانت الريح الباردة تهب اثناء الليل فترجف الفزاعة ولكن الفزاعة كانت غارقة فى دموعها ، لذلك لم تشعر بالبرودة .

فجأة سمعت صوت امرأة : هذا انت ! خوفتنى ! عندئذ احست الفزاعة بالبرد

القارس . ولكن ما العمل ؟! لقد كرست نفسها لمهمة الحراسة ، وليست لها اية حرية فى التحرك ، لذا كان عليها ان تظل واقفة فى مكانها . نظرت الى تلك المرأة فأدركت انها صيادة سمك . فالنهر قريب من ذلك الحقل ، وقد توقف قارب المرأة بجانب الشاطئ وفى سقيفته يلمع ضوء مصباح ضئيل .

بدأت المرأة ترمى شبكتها فى الماء ثم تنتظر قليلا وتسحب الشبكة .

من سقيفة القارب كان يسمع سعال طفل وصوت ضعيف يهتف " ماما " بين حين وآخر . كان هذا يقلق المرأة التى كانت تسحب الشبكة بكل قوتها وبكل جهد ولكن الشبكة كانت تخرج فارغة فى كل مرة ، وظلت الحركة فى سقيفة القارب مسموعة فتهتف الام بالولد المستلقى فيها :

— نم يا بنى ! انتظر حتى احصل على سمكة لأصنع لك بثمنها حساء الرز غدا ، اذا انت ناديتنى دائما كيف استطيع ان احصل على سمك ؟!

يبدو ان صبر الولد قد وصل حده فراح يصرخ :

— يا ماما ، اموت من العطش ، اعطينى قليلا من الشاى !

ثم راح يسعل من جديد .

— اين تريد ان اجد الشاى ؟! اهدأ قليلا ، انتظر !

ولكن الطفل عاد يبكى بكاء عاليا وهو يهتف :

— اموت من العطش !

فى هدأة الليل ، وفى الريف المقفر ، بدت التنهدات والنحيب فى غاية الحزن .

بدت المرأة مرهقة متضايقة فتركت وثاق الشبكة وصعدت الى القارب ثم دخلت السقيفة واخذت طاسة غرفت بها من ماء النهر واعطت الولد المريض . شرب الولد الماء دفعة واحدة ، لقد كان عطشان فعلا . ولكن ما كادت الطاسة تعاد الى مكانها حتى عاد الطفل الى سعاله ، يبدو ان الماء زاد حالته سوءا فظل يلهث طويلا بعد ان سعل !

لم تتمكن المرأة من البقاء بجانب الولد مدة اطول فعادت الى الشاطئ لتسحب

شبكتها . هدأت السقيفة فترة ، ولكن الشبكة ظلت تخرج فارغة فى كل مرة الا انها تمكنت اخيرا من القبض على سمكة شبوط بطول الفتر ! لا بأس ! هذا اول نجاح ! اخرجت المرأة السمكة من الشبكة بحذر شديد ثم وضعتها فى دلو واعادت الشبكة الى النهر من جديد . كان الدلو عند قدم الفزاعة .

ازدادت الفزاعة الما وانقباضا . هى تشفق على هذا الولد العطشان الذى لم يتمكن من الحصول على جرعة من الشاى والذى لم يكن يستطيع النوم بجانب امه رغم مرضه الشديد ! تشفق على هذه المرأة التى جاءت تصطاد السمك فى اعماق ذلك الليل القارس ليستطيع طفلها شرب حساء الرز . فاضطرت الى ان تترك ولدها وحده عاجزة عن الاعتناء به ورعايته ! كم تمنت الفزاعة لو صارت حطبا جافا لتغلى فوقه المرأة الشاى لولدها ! تمنت لو كانت غطاء يدفئ ذلك الولد ، تمنت لو استطاعت ان تنتزع من الفراشات الصغيرة الصفراء الرز الذى تفترسه لتصنع منه حساء لهذه الام المسكينة ! لو استطاعت الفزاعة ان تمشى لكان من الممكن تحقيق كل هذه الامنيات ، لكن لسوء الحظ كان جسمها شبيها بشجرة راسخة فى الارض لا تستطيع ان تتحرك قدما واحدا . وكلما امعنت فى التفكير ازدادت حزنا والما ، فراحت تبكى حتى كاد قلبها ينفطر . ولكنها توقفت فجأة عن البكاء مذعورة لدى سماعها صوت صدمة ، ثم لاحظت شيئا ، رأت السمكة التى رمتها المرأة فى الدلو !

فى الدلو كان هناك قليل من الماء ، كانت السمكة ممددة فى قاعه ، لا تستطيع ان تسبح ، فأصبحت متضايقة ، فراحت تقفز بكل قوتها محاولة الفرار ، فأحدثت تلك الطقة . حاولت مرارا ان تهرب ولكن جدار الدلو كان يمنعها دائما فتقع ثانية الى القاع تتألم روحا وجسدا . وعندما رفعت نظرها الى فوق رأت الفزاعة فراحت تتوسل اليها :

ـ يا صديقتى ، انزلى مروحتك ، ساعدينى على الخروج ! اذا لم اعد الى الماء اموت ! يا صديقتى الرحيمة ! ساعدينى !

ما ان سمعت الفزاعة هذه الاستغاثة الصادرة من اعماق السمكة حتى ازدادت

حزنا ولكنها لم تستطع ان تفعل اكثر من هز رأسها بكل قوتها ، كأنها تريد ان تقول : عفوك ! انا شخص بلا حول ولا قوة ! اود من كل قلبى ان اساعدك ، وان اساعد الام التى اخرجتك من النهر ، وان اساعد ابنها ، اود من كل قلبى ان اساعد كل الناس الذين يعيشون فوق هذه الارض . ولكنى لست الا خشبة مغروسة فى الارض ، ليست لى حتى حرية الحركة ولا استطيع ان انقل قدمى شبرا واحدا . كيف استطيع ان البى رغبات قلبى ! عفوك وعذرا ! انا شخص بلا حول ولا قوة !

لم تستطع السمكة ان تقرأ افكار الفزاعة ولا ان تفهم مشاعرها ، لقد رأتها تهز رأسها ليس الا ! عندئذ اجتاحتها ثورة من الغضب كموجة من اللهب ، فهتفت :

ـ هل تتعبك كثيرا هذه المساعدة التى اكلفك بها ؟ انت حقا بلا قلب ! تكتفين بهز رأسك ! آه ، لقد كنت واهمة ! لماذا استرحم واستعطف ! يجب ان اجد مخرجا لنفسى بنفسى ! فاذا لم انجح لم يبق امامى الا الموت ! هذا هو الحل !

قالت السمكة هذا ثم وثبت بكل قوتها وبكل جهدها وهى ترفع عاليا ذيلها وزعانفها !

عندما رأت الفزاعة ان السمكة اساءت فهم افكارها وان لا سبيل لتفسير تلك الافكار احست بالحزن الشديد فبكت وتنهدت . بعد قليل رفعت رأسها لترى ما حدث من جديد : المرأة كانت تغفو وهى لا تزال ممسكة بحبل الشبكة ، لقد كانت متعبة مرهقة رغم تفكيرها الدائم بحساء الغد ، لذا كانت تغالب النعاس فغلبها النعاس ! اما السمكة فلم تعد تسمع ضجة وثباتها الا ان ذيلها وحده ظل يتحرك من وقت لآخر .

شعرت الفزاعة ان مصائب كثيرة قد تجمعت فى وقت واحد فى تلك الليلة ، انها ليلة مليئة بالمآسى ! ولكن اولئك اللصوص ذوى الاجنحة الصفراء كانوا ، على ما يبدو ، سعداء جدا ، شبعوا وارتووا وانتشوا فراحوا يتراقصون فوق الاوراق ! لقد تلف محصول الرز ، وجهود المرأة العجوز ذهبت بلا جدوى ! شىء يملأ القلب حزنا لايعادله حزن !

الليل ازداد سوادا وبدت النجوم كأنها فقدت كل بريقها ! وخيل الى الفزاعة انها ترى شبحا اسود يتقدم نحوها . امعنت النظر فرأت شابة فضفاضة الثياب شعثاء الشعر . توقفت المرأة جامدة فى مكانها قرب القارب بجانب النهر ، ثم تابعت

سيرها بجانب الشاطىء ، وبعد قليل توقفت جامدة فى مكانها مرة اخرى ، استغربت الفزاعة ذلك فراحت تراقب بانتباه شديد .

من فم المرأة خرجت تمتمات ضعيفة متقطعة لا يمكن لأحد ان يسمعها سوى الفزاعة التى اعتادت ان تصغى الى الهمسات الخافتة فى اعماق الليل . كانت المرأة تتمتم : " لست بقرة ولا عنزة كيف اسمح لك بأن تبيعنى الى الغير ؟ اريد ان اهرب ! لن انتظر حتى تسلمنى غدا الى شخص آخر ! تعرف ما لك على القمار والخمر ؟! لماذا تحاول ان ترغمنى على . . . لم يبق لى خلاص الا بالموت ! لم تترك لى حلا آخر ! اذا مت التحقت بابنى الذى دفنته بيدى ! " كان صوتها متهدجا ، تنتحب حتى تكاد تختنق ، وتختفى من فمها الكلمات .

ذعرت الفزاعة وراحت تخاطب نفسها : هذه مصيبة جديدة ! انها تريد ان تنتحر !

ازدادت قلقا ورغبت فى انقاذها دون ان تدرى سببا لتلك الرغبة . راحت تحرك مروحتها لايقاظ المرأة النائمة الممسكة بالشبكة ولكن المرأة كانت غارقة فى النوم . عبثا حاولت ، لقد كانت المرأة تنام كالاموات لا تبدر منها اية حركة او نأمة . تألمت الفزاعة لأنها لا ترغب فى ان تكون مثل شجيرة مغروسة فى الارض ، لا تستطيع ان تتحرك شبرا واحدا ! أ لا تكون مجرما اذا رأت انسانا يموت ولا تحاول ان تنقذه ؟! احست الفزاعة انها شريكة فى تلك الجريمة وشعرت بأن مصيبة اثقل من الموت سوف تقع على رأسها !

هتفت فى اعماق نفسها : اشرقى ايتها السماء ! اسرعوا ايها الفلاحون ! طيرى ايتها الطيور واحملى هذا النبأ ! هبى ايتها الريح لتبديد هذه الرغبة فى الانتحار .

هكذا راحت تصلى بصمت ، ولكن الظلام كان يسود كل ركن والسكون ينشر رواقه فى كل مكان ! احست بأن قلبها يتحطم ، فحاولت ان تشيح بوجهها عن ذلك المنظر ولكنها لم تستطع . فقد ظلت تحدق ، وهى ترتجف ، الى ذلك الشبح الاسود المنتصب بجانب النهر والذى كان ينحنى الى الامام مرة بعد مرة . لقد ادركت الفزاعة ان المصيبة التي تخشى وقوعها قد اوشكت على الوقوع فراحت تحرك مروحتها اكثر

فأكثر . ولكن المرأة لم ترم بنفسها فى النهر ، حتى تلك اللحظة وظلت منتصبة ثابتة فى مكانها .

بعد قليل رفعت المرأة ذراعيها فتأرجح جسمها باتجاه النهر ، فلم تستطع الفزاعة احتمال هذا المشهد فأغمى عليها قبل ان تسمع صوت سقوطها فى الماء .

فى الصباح الباكر وجد الفلاحون جثة قرب النهر ، وانتشر الخبر بسرعة فتراكض الناس رجالا ونساء من كل صوب . ايقظت هذه الجلبة المرأة الممسكة بشبكتها والتى كانت غارقة فى النوم . القت المرأة نظرة على الدلو : كانت السمكة ميتة بلاحراك . ولما حملت الدلو الى السقيفة استيقظ الولد المريض وقد ازداد وجهه شحوبا وازداد سعاله ترددا . الفلاحة العجوز اسرعت مع المتراكضين نحو النهر لتشاهد ذلك المنظر ، وعندما مرت بالقرب من حقلها اغتنمت الفرصة لتلقى عليه نظرة . واحسرتاه ! خلال بضعة ايام فقط ، تلف كل شيء ! السنابل التى لم تنضج بعد تساقطت مبعثرة ، والاوراق الخضراء اصفرت ويبست .

راحت تضرب الارض بقدميها وتدق على صدرها وتنتحب وتعول ! تراكض الناس يسألونها عن السبب ويعزونها . اما الفزاعة فقد كانت قد سقطت فى وسط الحقل !

— عام ١٩٢٢ —



تمثال لبطل قديم

طلب من مثال ان ينحت تمثالا حجريا لبطل قديم تكريما لذكراه .

قبل المثال الطلب وبدأ يدرس تاريخ ذلك البطل ليكون فى ذهنه صورة عن ملامح ذلك البطل ومزاياه وخلقه . ورأى ان من الأفضل ان لا ينحت تمثالا عاديا بل تمثالا حيا يجسد ذلك البطل ويوحى الى كل من يراه بأنه يعرفه ويفهمه ويعظمه .

لا شك فى ان النجاح سيكون حليف الجهود المضنية . لذا تابع المثال بحوثه مطلقا لخياله العنان ، ومع الايام بدأ نموذج التمثال يتكون فى ذهنه رويدا رويدا . وقفة التمثال يجب ان تكون هكذا ، الوجه هكذا ، فكر فى كل شىء حتى فى شكل الاصابع وفى كل شعرة فى رأسه . فكر فى ان لا سبيل الى انجاح عمل ينبض بالحياة الا بالدراسة الواسعة والتصميم الدقيق حتى لا يكون تمثالا ميتا .

ذهب الى الجبال فأحضر منها صخرة ضخمة ، ثم بدأ يعمل بعد ان تكون فى ذهنه نموذج واضح لتمثاله المقبل . لقد كان واثقا من نفسه ، يعرف بجلاء ما هى الاجزاء التى يجب ان يحافظ عليها من تلك الصخرة وما هى الاجزاء التى يزيلها . بدأ ازميله ينحت ضربة بعد ضربة وبدأ سكينه يحفر نقرة بعد نقرة وبدأت قطع الحجارة تتساقط على الارض تباعا كبيرة وصغيرة . ومثلما تبدو النجوم بعيد الغروب واحدة واحدة باهتة ضئيلة فى البدء ثم متلألئة اكثر فأكثر ، هكذا بدأت ملامح البطل تتشكل تحت ازميل النحات . لقد كان تمثالا كاملا لا تضاف اليه لمسة ولا تحذف منه لمسة . لقد جاء مطابقا تماما ومجسدا للنموذج الذى تخيله المثال .

كان رأس التمثال مرتفعا ، العينان تنظران الى بعيد كأن عزيمته تمتد نحو افق

غير محدود . كان الفم مفتوحا كأنما هو يهتف وذراعه اليسرى مطوية تمثل القوة وكأنه يرغب فى ان يعانق الجماهير المحتشدة حول قاعدته . يده اليمنى تضم قبضتها مشيرة الى الامام ، عضلاته وعظامه نافرة كأنما هى جذع شجرة عتيقة توحى بأنه سيكيل ضربة مبرحة لمن يجرؤ على تحديه .

اقيم التمثال الجديد فى احدى ساحات المدينة ، فوق قاعدة من الحجارة التى نحتها المثال من الصخرة نفسها اثناء العمل . كان هذا ابداعا فنيا جديدا رآه النحات خيرا من القاعدة المكعبة الاعتيادية . كانت القاعدة عالية جدا الى درجة ان التمثال كان يجذب اليه انظار القادمين الى المدينة ، تماما كما يجذب برج ايفل انظار القادمين الى باريس .

وهكذا ذاعت شهرة ذلك النحات الذى استطاع ان يصنع تمثالا حجريا لبطل قديم ، اجمعت الجماهير على تقديره وتكريمه .

احتشد الأهالى فى ساحة المدينة للاحتفال بازاحة الستار عن ذلك التمثال وهناك بدأ مهرجان الرقص والغناء والطرب . افرغت فيه دنان كثيرة من الخمر وساد فيه الهرج والمرج حتى تعفرت ثياب الكثيرين او تلطخت وسقط بعضهم على الارض فأصيبوا بخدوش او رضوض .

منذ ذلك اليوم انطبعت صورة ذلك البطل حية مجسدة فى اذهان الناس ، تبعث الحماسة والشجاعة فى نفوسهم . وكان كل من مر بذلك التمثال يتوقف برهةامامه يحييه باحترام ثم يتابع طريقه .

من طبيعة الناس الغرور الا القديسين والحمقى منهم . وهذه الصخرة التى نحتت فأصبحت بطلا والتى لم تكن قديسة ولا بلهاء لم تستطع ان تكبح جماح غرورها بعد ان رأت الناس يبجلونها ويجلونها . وهكذا راح التمثال يقول :

— انظروا كم انا عظيم ! لى مكانة مميزة انتصب عاليا اعلى من الجميع اعلى من كل شىء . كل سكان المدينة ينحنون تحت قدمى . اعرف انهم صادقون مخلصون . ان مثل هذا المجد والشرف شىء نادر . اى آلهة تستطيع ان تنافسنى ؟!

لم يكن التمثال يوجه كلماته هذه الى السحب البيضاء لأن السحب البيضاء تهيم في السماء هنا وهناك ولا ترغب في سماع ادعائه ! ولا الى الاشجار التي يراقصها النسيم لأن الاشجار كانت مشغولة جدا وليس لديها وقت الانصات اليه . كان التمثال يوجه كلماته هذه الى رفيقاته من الحجارة الكبيرة والصغيرة التي صنع منها النحات قاعدة لتمثاله.

التكبر على الرفاق قانون قديم قدم هذا الكون . وهكذا كان التمثال يستمر في رفع رأسه عاليا والتحديق في الافق البعيد اللامتناهي دون ان يمنح رفيقاته الحجارة نظرة واحدة . هذا غرور كبير . احتقر حتى رفيقات الامس ولم يبد اي رغبة في البقاء بجوارهن حتى ان بعض العبارات انسابت من بين شفتيه :

ـ من انتن اللواتي تقفن تحت اقدامي ؟! ما قيمة وجودكن في هذا العالم ؟!

ـ ايه ، ايها الصديق الفوقاني ، ما الذي ضعضع تفكيرك ؟ انت نسيت الماضي !

كان المتكلم حجرة صغيرة في زاوية القاعدة تكلمت بهدوء كأنما هي تريد ان توقظ شخصا ثملا فاقد الوعي ، كانت تتكلم ببطء وبوضوح .

ـ الماضي ؟ وكيف كان ذلك ؟

قالت الصخرة الفوقانية ذلك ولم تكن تتوقع مثل هذه الملاحظة ولكنها لم تحاول ان تخفف من غلواء غرورها .

ـ ألم نكن في الماضي مندمجين بعضا ببعض ؟! لم يكن هناك انت ولا نحن ولم نكن نشكل الا كتلة واحدة !

ـ اجل ! في الماضي كنا نشكل كتلة واحدة . ولكننا افترقنا بين يدي النحات . لقد تساقطتم تباعا كلما دق النحات ازميله او حفر بسكينه . لم يبق الا انا وحدي تمثالا عظيما يقدم اليه الناس الاحترام . من الطبيعي والمنطقي ان اعتبر نفسي اعلى منكن جميعا منزلة . ومن الطبيعي ايضا ان يكون مكانكن تحت اقدامي لأنكن لا تصلحن الا لهذا ! كيف يمكن ان نكون على قدم المساواة ؟! فاذا اعتقدتن اننا جميعا متساوون فمعنى ذلك ان السماء والارض متعادلتان ايضا !

هنا اطلقت حجرة صغيرة اخرى ضحكة استخفاف .

ــ ما الذى يضحكك ايتها الصغيرة الوقحة ؟

ــ لم تكتف بأن تنسى الماضى بل نسيت الحاضر ايضا .

ــ كيف ؟ والحاضر ايضا؟

ــ الواقع انك الآن غير منفصلة عنا . نحن لا نزال نشكل كتلة واحدة وان تغير الشكل السابق . انظرى ، ألسنا ملتصقات جميعا بعضنا ببعض من قمة الرأس حتى اسفل القاعدة ؟ ومن ثم فان وضعك الآن هو على عكس ما تظنين . انك الآن فى وضع مقلقل مزعزع بعد ان تحولنا نحن الى حجارة صغيرة وكبيرة ، صحيح انك تقفين فوقنا ولكن يكفى ان نتحرك قليلا ولو قليلا جدا حتى تفقدى توازنك وقدرتك على الثبات عاليا .

ــ أ ليس فى العالم احجار سواكن ؟

ــ لا داعى للتفكير فى الاعتماد على غيرنا من الحجارة ، من الآن فصاعدا لن نسمح لك بالبقاء ، سوف تسقطين الى الارض وتتحولين الى فتات من الحجارة والى الاف القطع الشبيهة بنا تماما .

ــ ايتها الصغيرة الوقحة ، كلامك هراء ! من اين اتتك الجرأة لتحاولى تخويفى ؟

كان التمثال غاضبا ولكنه ظل يحافظ على وقاره مخاطبا الحجرة الصغيرة كأنه يخاطب اسيرا او عبدا . عندئذ هتفت حجارة القاعدة جميعا وبصوت واحد :

ــ ألا تريد ان تصدقنا ؟ سوف ترى !

دبت فى جسم التمثال قشعريرة خوف فتلاشت غضبته ، وتناسى كبرياءه وقال بصوت استعطاف :

ــ لا تفعلن هذا ! نحن اصدقاء يرتبط بعضنا ببعض ويلتحم ! ما الداعى للأذى ! ما نطقتن به كله صحيح . انا اصدقكم فلا داعى لاسقاطى !

ــ ها ! ها ! انت تصدقنا اذن !

ــ نعم انا اصدقكم ! انا اثق بكن كل الثقة !

مر الخطر ! ولكن الغرور مثل جذر العشب يختفى فى الشتاء ويفرخ فى الربيع .

وهكذا بدا صوت التمثال ناعما وكلماته رقيقة وراح يتخذ اسلوب الجدل والنقاش ولم يملك نفسه عن القول :

— فى رأيى اننى اسمى منكن وارفع منزلة ، أ ليس كذلك ؟ لأنى امثل بالفعل بطلا ، بطلا شهيرا ذائع الشهرة فى التاريخ .

قالت حجرة صغيرة بلهجة ساخرة :

— كيف يمكن الاعتماد على التاريخ ؟ كيف يستطيع المؤرخون ان ينقلوا افكار اناس عاشوا قبل الاف السنين دون ان يرتكبوا الاخطاء فى تسجيل احداث ذلك التاريخ . هل تعتقد ان الثقة بالتاريخ يجب ان تكون ثقة مطلقة ؟!

واضافت حجرة ثانية :

— وبطلك هذا ؟! ربما كان انسانا عاديا ، ربما كان صعلوكا ولكن المؤرخين المغالين قد صنعوا منه بطلا ، وعلى كل حال فليس فى استطاعة اى انسان ان يرجع عجلة التاريخ الى الوراء ليثبت الوقائع . وبالاضافة الى ذلك ، هناك حالات لا تستند الى اى حقيقة واقعية . قد يكون هناك شيء او شخص خيالى تحوله الاقلام الى بطل ، مثلا : نوه تسا وسون وو كونغ — شخصيتان قصصيتان صينيتان — أ ليسا جميعا بطلين ؟! انهما فى الواقع شخصيتان من نسج الخيال ومع ذلك فان صورتهما واحداثهما محفورة فى اذهان الناس . وهكذا يكون التاريخ شبيها الى حد ما بالروايات .

— ان البطل الذى امثله لا يمكن ان يكون زائفا .

قال التمثال من عليائه وفى لهجته نبرة الغضب محاولا اقناع الحجارة الصغيرة بكل جهده ، ثم تابع قائلا :

— ان البطل الذى تحترمه جماهير المدينة وتبجله يجب ان يكون بطلا تاريخيا حقيقيا .

— ليس هذا حقيقة مطلقة !

اجابته معا ست او سبع حجارة .

ثم اردفت واحدة ذكية :

ـ الشيء الذى يتقنه اهالى المدينة هو الاحتفال باللاشيء والانحناء امام اللاشيء!

ازداد سخط التمثال وقال لنفسه : لا شيء ؟ ولكنى اعتبر ان الاحترام الذى القاه هو شيء مجيد بحد ذاته ! فهل انا مخدوع ؟

هنا قالت حجرة صغيرة بدورها :

ـ لم ننخدع بلك فحسب بل سوف نشقى كل حياتنا ونحن مكدسات تحت اقدام اللاشيء !

سكت الجميع وكأن الجميع يستسلم لتفكير عميق . . .

فى سكون الليل سقط التمثال الصخرى فجأة ، مثل سباح يغطس فى الماء من علو شاهق . كان التمثال ثقيلا عاليا فتفتت عند سقوطه الى شظايا لا تعد ولاتحصى ! التمثال الصخرى نفسه والقاعدة نفسها تحطما جميعا وتحولا الى كومة من الحجارة والحصى تكدست فى ساحة المدينة .

فى الصباح الباكر بدأ الناس يمرون فى الساحة لينحنوا امام التمثال بخشوع ولكن لم يكن فى ساحة المدينة الا كومة من الحصى ، اما التمثال فقد اختفى ! راح بعضهم يتطلع فى دهشة نحـــو بعض دون ان ينطقـــوا بكلمة ثم تفرقـــوا مذهوليـن مكسوفين .

راح النحات ينتحب امام كومة الحصى نادبا اعظم عمل فنى قام به فى حياته ثم اعلن انه لن يمسك بالازميل بعد اليوم وهكذا كان .

بدأت كومة الحجارة فى ساحة المدينة تضايق الاهالى فتقدم بعضهم باقتراح لرصف الطريق المتجهة نحو الشمال بتلك الحجارة . وحظى الاقتراح بالتأييد ووجد الناس الطريق الجديدة المرصوفة شيئا عمليا نافعا ، لهذا اقاموا لها حفلة تدشينية جديدة .

كانت اشعة الشمس تنعكس برفق فوق الطريق الجديدة فتبدو حجارتها وكأنها تبتسم ، وتتبادل التهانى :

ـ نحن فعلا متساوون .

ـ لم نعد شيئا لا معنى له .

– لقد توحدنا معا لنبنى طريقا حقيقية . فلنعمل جميعا على ان يكون كل هؤلاء الناس الذين يسيرون فوقها سعداء !

– عام ١٩٢٩ –

حلة الامبراطور الجديدة

سبق لاندرسن ، الكاتب الدانمركي ، ان كتب قصة عنوانها « حلة الامبراطور الجديدة » وقد قرأ كثير من الناس تلك القصة .

القصة تروى حكاية امبراطور . كان يحب اكثر ما يحب الحلل الجديدة وكيف خدع محتالان نصابان ذلك الامبراطور . زعم هذان المحتالان ان الحلل التى يصنعانها تمتاز بأناقة لا توازيها اناقة وان لتلك الحلل قوة سحرية تجعل الاغبياء والعاجزين وحدهم لا يرونها .

بدآ بحياكة القماش ، ثم فصلاه وخيطاه ، كل ذلك بمجرد حركات يدوية فى الهواء .

ارسل الامبراطور وزراءه عدة مرات ليتفقدوا سير العمل فى الحلة الجديدة . لم يستطع ان يروا شيئا ولكنهم خافوا ان يتهموا بالغباء واخافهم اكثر ان يتهموا بأنهم عاجزون غير اكفاء ، لذا كانوا يقولون كل مرة انهم رأوا الحلة وانها انيقة فعلا .

وعندما زعم المحتالان ان الحلة قد اصبحت جاهزة اهتم الامبراطور لأن يقيم احتفالا كبيرا بالمناسبة ، وقرر ان يظهر فى هذا الاحتفال بالحلة الجديدة .

رجا المحتالان الامبراطور بأن يتكرم بخلع كل ثيابه القديمة وراحا يوهمانه بحركات يدوية انهما يلبسانه حلة جديدة .

لم يشاهد احد من خدم القصر المحيطين بالامبراطور اية حلة جديدة ولكنهم خافوا ان يتهموا بالغباء واخافهم اكثر ان يتهموا بالعجز والتقصير ، لذا راحوا يبدون اعجابهم الجماعى بالحلة الجديدة . شعر الامبراطور بالاعتزاز فخرج عاريا كما



ولدته امه ! وعندما مر بين الجماهير المحتشدة فى طريق القصر ابدت الجماهير اعجابها الجماعى بحلة الامبراطور الجديدة ، كأنها قد رأت الحلة فعلا .

ولكن الاطفال يحبون قول الحقيقة مهما كانت ، لذا هتف واحد من بين الاولاد :

ـ انظروا ، هذا الرجل لا يلبس ثيابا .

سمعه الناس جميعا فتبادلوا النظرات ثم اغرقوا فى الضحك وهم يهتفون :

ـ آه ! صحيح ! الامبراطور لا يلبس ثيابا .

سمع الامبراطور هتافهم وفهم جيدا انه قد خدع ، فبدا كأنما سكب على رأسه دلو من الماء البارد ولكن الموقف لا يسمح بالتراجع ، لهذا فضل ان يتجاهل عريه وان يستمر فى طريقه بعزم وتصميم .

ماذا حدث بعد ذلك ؟ اندرسن لا يروى شيئا ! والحقيقة ان اشياء كثيرة حدثت بعد ذلك !

تابع الامبراطور طريقه متظاهرا بالهدوء والارتياح ، منتصب القامة الى درجة سببت له آلاما فى كتفيه وظهره . كان الخدم الذين يتبعونه حاملين ذيل حلته المزعومة يعرفون انهم يقومون بعمل مضحك جدا وتمنوا فى قرارة انفسهم ان يضحكوا ، ولكنهم لم يجرؤوا على ذلك واكتفوا بأن يعضوا على شفاههم . وظل الحراس مطرقين لايجرؤ احدهم على تبادل النظرات مع غيره خوفا من ان يغرقوا فى الضحك .

لم يستطع الاهالى ان يضبطوا اعصابهم مثلما فعل الخدم والحراس المدربون ولم يفكروا فى ان يعضوا على شفاههم او يطرقوا فى الارض ، لذا راحوا يسخرون علانية ويقهقهون جهرا بعد ان انكشف الامر :

ـ ها ! ها ! انظروا ! امبراطور بلا ثياب !

ـ هيه ، هيه . مجنون ! لا يخجل !

ـ سعدان هزيل . ما اقبحه !

ـ آه ! انظروا ساقيه وساعديه كأنه دجاجة منتوفة .

عندما سمع الامبراطور هذه الكلمات استشاط غضبا وشعر بالخجل ، وكلما

ازداد خجلا ازداد غضبا . فما كان منه الا ان وجه الى وزرائه الاوامر قائلا :

ــ أ لا تسمعون هذه الجماهير المتمردة التى تتمتم من خلفى ! لماذا تسمحون لهم بذلك ؟! حلتى جديدة ولا مثيل لأناقتها . ليس فى الكون من يستحق ان يلبسها غيرى ! حلتى هذه تزيدنى شرفا وعظمة ، أ لم تكونوا كلكم من هذا الرأى ؟! هذه الجماهير جماهير رعاع عميان ! من الآن فصاعدا سوف ارتدى هذه الحلة دون غيرها . كل من يوجه اليها اى نقد هو شخص شرير متمرد اوقفوه فورا واعدموه حالا ! هذه اوامرى ، نعم ، اوامرى ! اذهبوا حالا واعلنوها ، انها قانون ، انها القانون الجديد !

لم يجرؤ الوزراء على المعارضة فأوعزوا الى اتباعهم بأن ينفخوا فى الابواق ليجتمع الناس ثم اعلنوا بصوت الآمر الناهي القانون الجديد . فتوقفت السخرية نتيجة لذلك . فشجع ذلك الامبراطور على استئناف جولته .

ولكنه ما كاد يبتعد قليلا حتى تعالت همسات السخرية من جديد وراحت تطرق مسمع الامبراطور فيسمعها واضحة :

ــ ها ! ها ! الامبراطور ليس له . . .

ــ ها ! ها ! اف ! جلده اسود !

ــ ها ! ها ! انظروا ، اضلاعه تبدو اعوادا !

ــ يا سلام ! ما اروع هذه الحلة !

تضايق الامبراطور جدا حتى تغير لون وجهه من الغضب فصرخ فى وجه وزرائه :

ــ أ لا تسمعون ؟!

ــ بلى ، يا مولانا ، سمعنا .

اجابوا وهم يرتجفون .

ــ هل نسيتم القانون الذى اصدرته ؟

ــ لا ، يا مولانا ، لا . . .

وقبل ان يتم الوزراء جوابهم التفتوا نحو الجنود واصدروا اليهم الاوامر :

ــ اقبضوا على كل من ضحك !

وهكذا حدث فى الشارع هرج ومرج شديدان ، تراكض الجنود فى كل اتجاه كأنهم يقومون بتطويق خيول برية ، وسدوا برماحهم الطريق على الهاربين .

وتراكض الناس فى كل اتجاه فسقط بعضهم وقفز بعضهم من فوق اكتاف جيرانهم يحاولون الهرب ، وامتزج البكاء بالصراخ . وكانت النتيجة اعتقال عشرات من اشخاص بينهم نساء وأطفال . امر الامبراطور باعدامهم فورا وفى الشارع نفسه ليعرف الناس انه لا يتراجع ابدا عن كل كلمة يقولها ولتكون هذه الحادثة عبرة لكل من يحاول ان يخرق القانون الجديد .

ومن ثم لم يعد بامكان الامبراطور ان يلبس حلة اخرى ، وصار كلما خرج فى الصباح الى ديوانه الامبراطورى وكلما عاد فى المساء الى مقاصيره يظهر عاريا كما ولدته امه الا انه كان يلمس هذا الجنب من جسمه او ذلك الجنب كأنه يحاول ان يسوى طيات ثيابه .

شعرت محظياته وخدمه فى البدء بالرغبة الملحة فى الضحك من هذا المنظر ولكنهم تعودوا مع الزمن رؤية جسمه الناحل الاسود وتعودوا ايضا على تلك الحركات التى كان يقوم بها ، رغم غرابتها ، فلم يعودوا يضحكون ثم انهم بالاضافة الى ذلك اخذوا يقنعون انفسهم بأن الامبراطور يلبس ثيابا بالفعل .

لقد كان من الضرورى لهؤلاء المحظيات والخدم ان يتصرفوا بهذا الشكل اذ انهم لو تصرفوا خلاف ذلك لتعرضوا للطرد وتعرضت حياتهم للخطر .

ولكن الكون لا يخلو من مفاجآت ، والجواد مهما كان نبيها قد يكبو وقد يدق عنقه او عنق فارسه فى كبوته .

ذات يوم كانت احدى المحظيات تنادم الامبراطور . فقدمت اليه كأسا من النبيذ الاحمر وقربتها من شفتى الامبراطور وهى تغنجه وتتدلل عليه قائلة :

— اشرب هذه الكأس جرعة واحدة وليكن عمرك طويلا بعمر السماء والارض !

فرح الامبراطور بذلك وفتح فمه وافرغ الكأس ، ولكن الجرعة كانت كبيرة على ما يبدو ، فراح يسعل فتناثر بعض النبيذ على صدره .

ـ آه ! لقد بللت صدرك !
ـ ماذا تقولين ؟ صدرى !
ادركت المحظية انها اخطأت فاصفرت وقالت وهى ترتجف :
ـ لا ، لا ، عفوا! لقد بللت حلتك !
ـ الندم لا ينفع ! انت قلت اننى لا البس ثيابا ، طيب ! انت غبية . انت ناكرة الجميل ، انت اهنت القانون !
اشتعل الامبراطور غيظا فالتفت الى خدمه وامرهم قائلا :
ـ خذوها الى الجلاد !
ومثل هذا حدث لأحد الوزراء الحكماء . اضطر الوزير لأن يساير مثل زملائه رغم ان قلبه لم يكن يطاوعه على تلك المسايرة ، فكلما رأى الامبراطور يجلس على عرشه دون ان يستره خيط واحد كان يحس انه امام قرد منتوف . وقد كان يشعر بخوف دائم ان يرتكب غلطة او يضحك فى حضرة الامبراطور . . . فيخسر حياته . لهذا قدم استقالته الى الامبراطور لكى يذهب لخدمة والدته المريضة فقال له الامبراطور :
ـ انت ابن بار بوالديه . طيب ، انا اقبل استقالتك .
شكر الوزير الامبراطور ثم استدار وخرج من قاعة العرش كما لو انه انزل عن كتفيه حملا ثقيلا . كان فى غاية السعادة فراح يتمتم بينه وبين نفسه : لاشك اننى حسنا فعلت ، فلا حاجة لى بمشاهدة هذا الامبراطور الذى لا يرتدى ثيابا .
طرقت كلمة " ثياب " مسمع الامبراطور فسأل حاجبه قائلا :
ـ ماذا قال ؟
رأى الحاجب وجه الامبراطور مكفهرا صارما فلم يجرؤ على الكذب فقال الحقيقة .
اضطرمت نار الغضب فى صدر الامبراطور فصاح :
ـ حسنا ! انت لم تعد ترغب فى رؤيتى ، لأجل هذا طلبت ان تغادر القصر ، نعم ستغادره ولكن الى العالم الثانى .
ثم امر خدمه :

ـ خذوه الى الجلاد !

على اثر هاتين الحادثتين اصبح الاشخاص الذين يترددون على البلاط او المقاصير الملكية اكثر حذرا ويقظة .

ولكن الشعب لا يملك القدرة على الانضباط التى يتمتع بها الخدم والمحظيات ، لهذا كان الناس كلما شاهدوا الامبراطور يخرج من قصره وهو يحاول ان يرتب هندامه ويسوى طيات حلته المزعومة ، وكلما شاهدوا جسمه الهزيل الشبيه بعود جاف لم يتمالكوا عن الاشارة بأصابعهم نحوه ، وعن التعليق على مظهره ، وارسال الضحكات المكتومة . ونتيجة لذلك كانت تجرى اعدامات بالجملة . ففى اليوم الذى خرج فيه ليقدم النذور الى السماء اعدم اكثر من ثلاثمائة شخص وفى اليوم الذى خرج يستعرض الجيش قطعت اعناق اكثر من خمسمائة شخص وفى اليوم الذى خرج يتفقد المدينة كان عدد الضحايا اكثر من الف لأنه مر فى شوارع كثيرة ، لذا كانت اعداد الذين ضحكوا وسخروا كثيرة .

احزنت كثرة الضحايا وزيرا شفوقا حزنا شديدا . ولم يعد هذا الوزير العجوز يطيق صبرا فراح يبحث عن وسيلة يضع بها حدا لذلك الوضع . كان يعرف ان الامبراطور لا يرضى ابدا بأن يعترف بخطئه وسوف يصر على رأيه اكثر فأكثر وقد يؤدى ذلك الى عقوبة الوزير نفسه . لذلك رأى الوزير ان الوسيلة المثلى هى ان يبادر الامبراطور من نفسه لارتداء ثياب حقيقية ، عندئذ تتوقف سخرية الجماهير وتتوقف احكام الاعدام بشكل طبيعى .

ظل الوزير العجوز يسهر الليالى الطويلة وهو يفكر فى الطريقة التى تجعل الامبراطور يبادر من تلقاء نفسه لارتداء ثيابه .

واخيرا اعتقد الوزير العجوز انه وجد الطريقة فذهب يقابل الامبراطور وقال له :

ـ عندى رأى مخلص اريد ان ابديه الى مولاى ! فى الماضى كنتم تحبون ارتداء الثياب الجديدة وكان هذا حسنا جدا . وكلما ارتديتم حلة جديدة ازددتم هيبة

وازددتم عظمة . ولكنى لم اعد ارى تلك الحلل الجديدة . فهل ازدادت مشاغل الدولة حتى نسيتم تلك العادة الجميلة ؟ ! الحلة التى ترتدونها بدأت تصبح قديمة ، فى رأيى ان تأمروا الخياط بصنع حلة جديدة وتبديل الحلة القديمة !

نظر الامبراطور الى صدره وساقيه وبدأ يمرر يده على كل جزء من جسمه وهو يقول :

– كيف ايها العجوز ؟! هذه حلة رائعة ممتازة ولا يمكن ان تعتق . سأظل البسها دوما . أ لم تسمع ما قلت ؟ ! طلب تغيير هذه الحلة معناه الاساءة الى ، معناه محاولة دفعى الى هاوية التعاسة . لهذا ونظرا للخدمات الممتازة التى قدمتها باستمرار ونظرا لكبر سنك لن آمر باعدامك ولكنك ستدخل السجن !

اراق الوزير العجوز ماء وجهه بلا جدوى وظلت احكام الاعدام سارية المفعول . وعندما عجز الامبراطور عن منع السخرية ازداد غيظا فأصدر قانونا جديدا اشد صرامة من القانون السابق واشد قسوة . نص القانون على انه لا يجوز لأى انسان عند مرور الامبراطور ان يصدر اى صوت وكل من يصدر عنه صوت او غمغمة ، ومهما كان نوع الصوت او الغمغمة فسوف يقبض عليه ثم يعدم .

على اثر اعلان هذا القانون وجد الشرفاء من الناس ان الكيل قد طفح ، فقد يستطيع الانسان قبول عقوبة القتل بسبب السخرية ، اما ان يقبل عقوبة القتل بسبب وشوشة او غمغمة مهما كان نوعها فهذا شئ لا يطاق ! لذلك اجتمعوا وشكلوا تظاهرة اتجهت نحو القصر ثم ركعوا وقالوا انهم يرغبون فى ان يتحدثوا الى الامبراطور .

خرج الامبراطور ، كان وجهه مضطربا قليلا ، ولكنه تظاهر بالهدوء وقال بصوت مرتفع :

– ماذا جئتم تفعلون هنا ؟ ! هل فى نيتكم العصيان ؟ !

لم يجرؤ الناس الشرفاء حتى على رفع رؤوسهم ولكنهم قالوا بصوت خاشع :

– نحن لا نجرؤ ! نحن لا نجرؤ على ذلك حتى ولو فى احلامنا .

اطمأن الامبراطور فانتفخ غرورا واعتزازا وراح يسأل وهو لا يزال يمرر يديه على

جسمه كأنه يمسح على ثيابه او يسويها .

ـ اذن ماذا جئتم تفعلون ؟

ـ جئنا نرجو من مولانا ان يمنحنا حرية الكلام وحرية الضحك . ان الذين يجرؤون على التكلم عنكم والسخرية منكم يا مولانا هم حقا مجرمون كبار يستحقون الموت ! ان اعدام امثال هؤلاء الناس تدبير عادل وحكيم . ولكننا لسنا من هؤلاء ، نحن لا نطلب الا حرية الكلام وحرية الضحك ! جئنا نلتمس منكم يا مولانا ان تلغوا هذا القانون الجديد .

ضحك الامبراطور وقال :

ـ هل الحرية ملككم الشخصى ؟ ! اذا شئتم الحرية فلا تكونوا من شعبى واذا شئتم ان تكونوا من شعبى فان عليكم ان تخضعوا لقانونى . ان قانونى من حديد ! الالغاء ؟ ! هذا شيء لا اقبله ابدا .

قال ذلك ثم ادار لهم ظهره وانصرف .

لم يجرؤ القوم الشرفاء على ان ينطقوا بكلمة واحدة . ثم راح بعضهم ، بعد فترة ، يرفعون رؤوسهم يسترقون النظر ليتأكدوا من مغادرة الامبراطور المكان . عندئذ لم يكن لهم بد من العودة الى بيوتهم . ومنذ تلك الحادثة تغير الناس فصاروا كلما خرج الامبراطور يلزمون بيوتهم يغلقون ابوابهم ولا يجرؤ اى واحد منهم على ان يمد نظره خارج بيته .

ذات يوم خرج الامبراطور يواكبه عدد كبير من الوزراء والحراس وتوجه نحو قصر له فى خارج المدينة . كانت الشوارع التى اجتازها مقفرة ، لم يكن فيها اى انسان ، والابواب كانت كلها مغلقة . فلا يسمع فى الشارع غير وقع اقدام الموكب كأنما الامبراطور وحاشيته يسيرون ليلا وفى خفية عن عيون الناس .

ومع ذلك لم يكن الامبراطور مرتاح البال مطمئنا فقد توقف فجأة واصاخ السمع فخيل اليه انه يسمع وراء جدران البيوت ضجة فالتفت الى وزرائه وخاطبهم بلهجة قاسية :

ـ أ لا تسمعون ؟ !

اصاخ الوزراء بدورهم اسماعهم لحظة ثم اجابوا وهم يترددون :

ـ اجل ، سمعنا ولدا يبكى !

ـ هناك امرأة تغنى !

ـ هناك ايضا سكران يضحك !

اشتعل الامبراطور غضبا وخاطب وزراءه بلهجة تأنيب :

ـ ايها التافهون هل نسيتم قوانينى ؟ !

ـ لا !

اجاب الوزراء بلهجة خانعة ثم التفتوا نحو الجنود ، وامروهم بأن يفتحوا الابواب التى سمعت من ورائها الضجة وان يوقفوا اصحابها نساء واطفالا وان يعدموهم فورا .

عندئذ حدث شيء لم يكن متوقعا . فتح الجنود ابواب بيوت كثيرة بعد ان حطموا بعضها لتوقيف اصحابها فتدافع الناس جميعا رجالا ونساء ومن شتى الاعمار نحو الخارج . لم يتراكضوا هاربين هنا وهناك ولكنهم تواثبوا جميعا نحو الامبراطور ثم راحوا يمدون ايديهم ويشدون لحم الامبراطور وهم يهتفون :

ـ نمزق ثيابك الوهمية ! نمزق ثيابك الوهمية !

كانت تلك ظاهرة غريبة نادرة لم يسبق لها مثيل . فقد راحت ايدى الرجال القوية تقرص ساعدى الامبراطور اللذين يشبهان عودين اعجفين . وراحت قبضات النساء تدق صدر الامبراطور الاسمر ، واسرع ولدان ينتفان الشعر الاسود فى ابط الامبراطور . كانت الجماهير تحاصره من كل جهة حتى ان الريح وقطرات المطر لم تعد تستطيع الوصول اليه . تقاذفته الجماهير فى كل جهة كأنه مركب فى بحر هائج . حاول ان يتراجع ، ان يكور نفسه مثل القنفذ ولكنه كان عاجزا عن ذلك . كان اصعب ما قاساه الامبراطور الدغدغة تحت ابطيه فحاول بكل ما أوتى من قوة ان يحمى خاصرتيه بساعديه ولكنه لم يقدر . عندئذ ادخل رأسه بين منكبيه وقطب حاجبيه وزم انفه فاتسع شدقه اكثر فأكثر حتى اصبح بشعا تماما فأحدث ذلك المنظر موجة من

القهقهات بين الجماهير :

عندما خرج الجنود من البيوت شاهدوا الامبراطور فى حالة يرثى لها فقد بدا مثل قرد علقت به زمرة من الزنابير تلسعه ولايستطيع خلاصا منها فانساهم هذا المنظر جلالة الامبراطور ووقاره فراحوا يقهقهون مع الناس .

اما الوزراء فقد احتفظوا بوقارهم بعض الوقت خوفا ورهبة الا انهم عندما شاهدوا الجنود يضحكون بملء افواههم راحوا يختلسون النظر الى الامبراطور ولم يستطيعوا ان يمنعوا انفسهم من الضحك .

بعد ان ضحك الجنود والوزراء بعض الوقت شعروا انهم يشاركون الشعب فى امتهان القانون . كانوا فى الماضى يساعدون الامبراطور فى التنكيل بالشعب عندما يسخر الشعب من الامبراطور ، اما الآن فقد وقفوا الى جانب الشعب . لقد كان منظر الامبراطور مضحكا حقا ، كان يرتجف ويحاول ان ينكمش على نفسه وقد احمر جسده وازرق ، فبدا مثل دجاجة منتوفة . ليضحك اذن من شاء ان يضحك واذا لم يسمح قانون الامبراطور بالضحك أ ليس هو قانوننا ابله ؟ ! لذا راح الجنود والوزراء يهتفون مع الشعب :

ــ نمزق ثيابك الوهمية ! نمزق ثيابك الوهمية !

لا شك انكم ادركتم ما حدث بعدئذ للامبراطور :

عندما رأى ان الجنود والوزراء قد انضموا الى الشعب ولم يعودوا يهابونه احس كأن صخرة وقعت على رأسه من السماء فاصطكت ركبتاه وارتمى على الارض بلا حراك !

ــ عام ١٩٣٥ ــ

العشبة الخجولة

كان ما كان

كانت عشبة صغيرة جارة لشجيرة ورد . كانت قصيرة دميمة ، اوراقها صغيرة كأنها مشط مكسر ، ساقها ضعيفة مثل خيط الكتان . كانت تلك العشبة تنتصب بجانب الوردة ولكن احدا لم يكن يلتفت اليها .

كان حال الوردة مختلفا تماما ، اوراقها خضراء كأنها زمرد منحوت ، براعمها منتفخة مثل حلمات البقرة ، كان من رآها توقف امامها وراح يردد :

ـ ما اجملها ! سوف تتفتح قريبا .

رفع احد البراعم رأسه وقال باعتزاز :

ـ من حسن الحظ اننا خلقنا وردا ! ولكننا لا نعرف ما يخبئه لنا الزمن ، ولا نعرف مدى سعادتنا فى المستقبل ، لذلك يحسن بنا ان ندردش قليلا عن رغباتنا وامانينا لأن الربيع طويل واذا لم ندردش شعرنا حقا بالملل .

قاطعه برعم وردى الجبين :

ـ ارغب ان اقوم برحلة جميلة . لقد اصبحت جميلا انيقا ، انا لا ادعى ، من له عينان فلينظر ! بمثل هذه الطلعة المشرقة اعتقد ان سيدا غنيا او آنسة غنية سيرافقنى فى هذه الرحلة . هذا الطراز من الناس فقط يمكنهم ان يرافقونى . سوف تكون لثيابهم رائحة البخور اوعطر باريس واذا حملونى فى ياقة معطفهم كان عطرى اقوى يفعم بأريجه كل ما حوله . تستطيع ان تقول ان هذه هى ذروة المجد . اما العربة التى سأركبها فانها طبعا من الدرجة الاولى . مقاعدها مغطاة بالمخمل مريحة



ناعمة . الستائر من الحرير مزركشة بزهور رسمها اشهر الفنانين . فاذا اسدلت يستطيع المرء ان يمتع ناظريه بجمالها الرائع . اما الضوء فسيكون هادئا يغرى المرء بالنعاس . واذا ازيحت الستائر فسوف يكون المنظر اجمل : من خلال النافذة تتراكض الجبال والاحراش المدهشة وتمتد الحقول الخضراء الزمردية على مدى النظر .

– فكرتك جميلة حقا !

احس عدد من ازرار الورد الذين كانوا يشعرون ببعض الملل من حرارة الربيع بشىء من التشجيع وهم يستمعون الى زميلهم البرعم وخيل اليهم انهم انفسهم يشكون بدبوس فوق صدر سيد غنى او آنسة غنية تقوم برحلة جميلة فى عربة من الدرجة الاولى .

ولكن صوتا ناعما ارتفع بجانبهم قائلا :

– جميل جدا ان يرغب المرء بالسفر ولكن ما الضرورة لأن تكون مشكوكا بدبوس فى صدر سيد غنى اوآنسة غنية ؟ ! أ لا تستطيع ان تقوم بهذه الرحلة بنفسك وعلى هواك ؟! ولماذا الدرجة الاولى ؟ اما اذا اصررت على ركوب القطار فانى انصحك بأن تركب الدرجة الاخيرة !

– اسمعوا ! من هذا الذى يغمغم ؟

رفع ازرار الورد رؤوسهم ليروا من المتكلم : السماء صافية ، بضع نحلات يطرن فى غيضة صغيرة ، لا عصفور لأن العصافير ذهبوا يتسلون فى الغابة الكبيرة ، لذا لم يستطع ازرار الورد ان يكتشفوا المتكلم . عندئذ خفضوا رؤوسهم ففهموا من اول نظرة ان جارتهم العشبة الصغيرة هى التى كانت ترفع رأسها وتتمايل مثل خطيب محترف ينتظر جوابا من منافسه .

اجاب زر الورد الذى يرغب فى السفر بشىء من اللامبالاة :

– الدرجة الاولى مريحة وانيقة اكثر من الدرجة الاخيرة ، لذلك من الطبيعى ان ارغب فى الدرجة الاولى .

ثم راح يفكر بينه وبين نفسه : كيف يمكن لمثل هذه العشبة الحقيرة ان تفهم

معنى الرفاهية ؟ ! على اذن ان اشرح لها .

وهكذا راح يخاطبها بشىء من العنجهية :

ــ الرفاهية هى مقياس الحياة مقياس السعادة هل تعرفين ذلك ؟ ! اذا وجدت الرفاهية كان للحياة طعم واذا فقدت عاش المرء كأنه لا يعيش . لذا عندما نأكل يجب ان نأكل الطعام اللذيذ الغالى الثمن وعندما نلبس يجب ان نلبس الثياب الفاخرة النفيسة ، صحيح أن المرء يستطيع ان يعيش بطعام ردىء وثياب بسيطة ولكن هل يمكن ان يقارن هذا بالاطعمة اللذيذة الغالية الثمن والثياب الفاخرة النفيسة ؟ طبعا لا ! لذا انا لا ارغب فى ان آكل الطعام الردىء ولا ارغب فى ان البس الثياب البسيطة . واذا كان فى وسع المرء ان يسافر بالدرجة الاخيرة فان هذا لا يناسبنى : المقاعد وسخة والنوافذ ضيقة حتى يكاد المرء ان يختنق . انت تنصحين فى ان اركب الدرجة الاخيرة ، هل يمكن ان تخبرينى عن قصدك الحقيقى من ذلك ؟!

عندئذ تكلمت العشبة الصغيرة بكل امانة وصدق :

ــ لا يعنى هذا اننى لا اعرف معنى الرفاهية . ولكن هل مجرد وجودنا فى هذا العالم هو البحث عن الرفاهية ؟! انا لا اعتقد ذلك ! بل اعتقد خلاف ذلك ! لا يحق للمرء ان يترك رفاقه ويعيش وحده ! بالاضافة الى ذلك اذا تمتع شخص ما بالرفاهية فى وسط جيران ورفاق يعيشون فى الفقر وشعر بأن هذه الرفاهية انما هى على حساب بؤس الآخرين وشقائهم ، أ لا تصبح الرفاهية عندئذ جريمة ؟! ألا تصبح الرفاهيـة عندئذ مصدر قلق وتأنيب ضمير ؟! فاذا عرفنا انها جريمة وانها تأنيب ضمير ، فهل يمكن ان نقبلها ؟! السعى لامتلاك كل شىء ألا يدل كل ذلك على ان الشخص لا يعرف نفسه ولا يعرف ان اعماله هذه هى بحد ذاتها اعمال اجرامية ؟!

افلتت من زر الورد ضحكة استهزاء فهو على ما يبدو لا يوافقها على رأيها وقال :

ــ من رأيك اذن ان على الناس ان يسافروا فى الدرجة الاخيرة التى تشبه السجون ! عندئذ لا حاجة الى عربات الدرجة الاولى ، يكفى ان نستخدم عربات الدرجة الاخيرة فى مواصلات السكك الحديدية ولكن أ ليس معنى هذا التقهقر والتراجع الى

الوراء ؟ ! يخيل الى انك لا تعرفين ان هدفنا هو التقدم وليس التراجع !

قالت العشبة الصغيرة بلهجة ساخرة :

ــ غريب ان تتحدث عن التقدم ! لا استطيع ان امنع نفسى من الضحك ! تسافر فى الدرجة الاولى وتنظر الى الآخرين مكدسين مثل الخنازير او الخراف فى الدرجة الاخيرة ، هذا تسميه تقدما ؟! فى رأيى ان كل انسان يحمل احساسا بالعدالة ويرغب فى تقدم هذا العالم ، ولكنه ان لم يستطع ركوب الدرجة الاولى فلا بأس من ركوبه الدرجة الاخيرة . فاذا لم تتوفر فى الدرجة الاخيرة الرفاهية فان هذا الوضع افضل من احساس المرء بأنه يرتكب ظلما !

ــ هوو ! هوو ! هس ! اسكتى ايتها الصغيرة الجاهلة ، كفاك هراء !

هكذا راح ازرار الورد يسفهون العشبة ويستنكرون اقوالها مثلما يهسهس المتفرجون ضد الممثلين الفاشلين .

واستأنف احد ازرار الورد الحديث قائلا :

ــ فلنتابع حديثنا عن آمالنا وامانينا !

قال زر نصف متفتح وهو يغن قليلا حتى يظهر نعومة صوته :

ــ احب ان احظى بالجائزة الاولى فى معرض الزهور . فى هذا المعرض لا تشترك الزهور البرية والزهور العادية ، لا تشترك الا الازهار المختارة النادرة التى تحظى بالعناية والاهتمام وبكلمة واحدة ازهار الطبقة العليا التى تعيش فى المجتمع الرفيع . الحصول على الجائزة الاولى فى هذا المعرض يعادل تماما فوز فتاة بعرش الجمال ، ان هذا مجد لا يضاهيه مجد . ان لجنة التحكيم لن تكون من انصاف المثقفين بل ستكون مؤلفة من اناس ذوى معارف عميقة واذواق تقدر الجمال ، يعرفون جمال اشكال الزهور وجمال الوانها ، يصدرون احكامهم استنادا الى خبراتهم فى المسابقات السابقة ومقاييسها . لذا لن يكون هناك ادنى خطأ فى التقدير . الجائزة الاولى التى يمنحونها سوف تكون جائزة حقيقية والحائز عليها يحق له ان يكون فخورا بها . فى ذلك الاجتماع المفعم بالالوان والعطور ، وفى وسط جمهور الزوار من نساء ورجال

المجتمعات الراقية لن يكون غيرى محط الانظار وانا منتصب فى زهرية من الخزف القديم فوق منضدة من خشب الصندل ، مشرف على كل ما حولى ، فى وسط قاعة العرض تماما . انظروا : هواة الزهور العجائز يهزون رؤوسهم نحوى وهم يداعبون لحاهم ، الاثرياء النبلاء يسمرون انظارهم فى وهم يرفعون كروشهم السمينة ، الصبايا الجميلات يتأملننى وقد ارتسمت على شفاههن الوردية بسمة الاعجاب ، عندئذ انتشى طربا وزهوا .

ـ فكرتك جميلة ايضا تستحق التقدير .

قال عدد من ازرار الورد ولكن بما ان الجائزة الاولى لن تمنح الا لواحد فراح كل واحد يفكر فى ان تكون له لا لذلك الزر نصف المتفتح . لن يقبل اى واحد منهم ان يكون دون الزر نصف المتفتح من حيث النوعية والشكل والبهاء واللون والعطر !

هنا عادت العشبة الصغيرة تتدخل ، فتكلمت من جديد بلهجة صريحة صادقة :

ـ ان تحاول سبق الآخرين ، ان تكون اقوى منهم ، هذا مطمح لا بأس به . ولكن لماذا تصر على ان تحصل على الجائزة الاولى فى معرض ؟ انت لا تستطيع ان تغادر قاعة العرض لابراز مفاتنك ؟ ! ثم لماذا تثق باللجنة كل هذه الثقة ؟ ! صدقنى ! يجب عليك ان تثق بجمهور من الفلاحين الريفيين البسطاء ، لا بلجنة تحكيم .

ـ كلامك هراء ايضا !

هذه المرة كان ازرار الورد يعرفون المتكلم ، لهذا خفضوا رؤوسهم وتطلعوا الى تحت : كانت العشبة الصغيرة جارتهم ترفع رأسها متمايلة كأنها تنتظر جوابا .

احنى زر الورد الذى كان يرغب فى الجائزة الاولى رأسه بشىء من الاستخفاف وخاطب نفسه قائلا :

ـ اثق بالفلاحين ؟ ! هذا شىء مضحك حقا ! على كل حال هناك خبراء وهناك جهلة . ان مائة كلمة من جاهل يخبط خبط عشواء لا تعادل كلمة واحدة من خبير . ألم اقل سابقا ان اللجنة فى معرض للزهور تتألف من اصحاب المعرفة القادرين على اصدار الاحكام الصحيحة المستندة الى خبرات المعارض السابقة ؟

انهم دون ادنى شك اصحاب خبرة عميقة واسعة بالزهور فلماذا فى مثل هذه الشروط لا نثق بحكمهم ؟ !

عندئذ ازداد زر الورد غرورا وراح يلتفت فى كل وجهة وهو يتمايل عجبا وزهوا ثم قال :

– اذا طلب منهم ان يختاروا واحدا منا انا او انت ، ايتها الصغيرة الحمقاء ، سوف يختارونني انا بالطبع وسينبذونك انت . هذا برهان على ان لهم خبرة ومعرفة ، ان لديهم القدرة على تمييز الجميل من الدميم . لماذا اذن لا اثق بحكمهم ؟ !

اجابت العشبة الصغيرة بكل هدوء :

– انا لا افكر فى منافستك ولا فى كسب الجائزة التى تحلم بها ولكن يجب ان تعرف ان الازهار التى تعتبرونها اجمل الازهار هى التى اعتادوا ان يروها ، اعتادوا ان يروا الاقحوان المستدير المنبسط الاسارير، وازهار المايهوا ذات الاغصان الطريفة المعقوفة ، فقالوا انها الاجمل ! لنأخذ حالتكم انتم ازهار الورد . هل كان اجدادكم فى مثل انتفاخكم انتم ؟! طبعا لا ! ولكن لأن اعضاء لجنة التحكيم اعتادوا ان يروا الزهور المنتفخة فانهم يرون فى ذلك جمالا منحكم اياه البستانى وانت تعتقد ان هذا هو الجمال ، أ ليس كذلك ؟ ! ان هواة الزهور العجائز والاثرياء النبلاء والصبايا الجميلات مثلهم مثل اعضاء لجنة التحكيم اذواقهم واحدة ومعارفهم واحدة . لقد حلت العادة لديهم محل الذوق وراحت العادة تملى عليهم احكامهم ، حقا هذا شىء لا قيمة له !

شعر زر الورد الذى يرغب فى كسب الجائزة ان كبرياءه قد جرحت فقال بشىء من الامتعاض :

– حسب رأيك لايوجد اى شخص سليم الذوق فى معرض الزهور أليس كذلك ؟ وكيف يمكن للفلاحين ان يكونوا اصحاب ذوق ومعرفة ؟ ! الادعاء بأن الفلاحين هم وحدهم اصحاب النظر القادر على التمييز معناه – مع الاسف – ان الفن فى هذا الكون قد انتهى !

اجابت العشبة الصغيرة بحماسة :

ـ انت تثير مشكلة الفن ، انت تعتبر ان الفن هو اتخاذ اشكال متعرجة وانحناءات متعمدة او انه التطلع الى الناس من عل من زهرية خزف قديمة فوق منضدة من خشب الصندل أليس كذلك ؟! فى رأيى ان الفن يتطلب حياة متوثبة وقوة حقيقية ، فلا تقل ان الفلاحين . . .

قال برعم آخر :

ـ لا حاجة لأن نصغى الى هذه العشبة التافهة وهى تهذى . انظروا ! هؤلاء الناس جاؤوا يشترون زهورا ، ربما نغادر هذا المكان !

كان الشخص الذى يقترب طباخا سمينا علق فى زنده سلة فيها فراخ مقطوعة الرؤوس وبضع سمكات تحتضر ترتفع اناتها وتنخفض بالاضافة الى بعض الخضر وكان يتبعه بستانى عجوز .

رفع البستانى مقصه وقطع باقة كبيرة من ازرار الورد . فى تلك اللحظة طارت نحلة من تحت ورقة ورد فظن البستانى انها تحاول لسع يده فضربها بكمه واسقطها .

ودع ازرار الورد التى قطفها البستانى العشبة الصغيرة تنازعهم شتى انواع العواطف :

ـ نحن نمضى ، المجد ينتظرنا ، سوف تبقين وحدك هنا ، ربما طاب لك ذلك ؟!

اغتنم ازرار الورد الفرصة ليدفعوا العشبة الصغيرة بمناكبهم ، كأنهم يقولون لها انهم لايرغبون فى ان يفارقوها . احست العشبة الصغيرة بالخجل الشديد فانكمشت وريقاتها التى تشبه اسنان مشط مكسر وذبلت مثلما يطأطىء ولد خجول رأسه ويسبل ذراعيه . احست بالخجل بسبب براعم الورد الجهلة المدعين الذين يعتبرون بعض الاشياء المجردة من كل معنى اشياء مجيدة .

بعد لحظة سمعت صوتا ضعيفا يشبه انين مريض . اقلقها ذلك فراحت تتلفت فى كل جهة وتسأل :

ـ من الذى يئن ؟ ماذا حدث ؟

ـ انا هنا ، ضربني البستاني فانكسرت ساقي . اشعر بالألم الشديد .

كان الصوت يأتي من بين الاعشاب تحت الوردة . تطلعت العشبة الصغيرة نحو تلك الجهة فرأت نحلة فقالت لها بصوت حزين :

ـ ساقك مجروحة أ ليس كذلك ؟ يجب ان تذهبي فورا الى الطبيب ليعالجك والا اصبحت عرجاء !

ـ اذا اصبحت عرجاء ، لا استطيع ان اقف جيدا على اسدية الزهور ارتشف منها العسل ! هذا مخيف ! سأذهب فورا لمقابلة الطبيب ولكن لا اعرف اين اجده ؟

ـ ولا انا ايضا ولكن عندي فكرة . سمعت ان عشبة عرق السوس هي من العقاقير الطبية ، فهي تعرف بالتأكيد عيادات الاطباء . هنا نبتة عرق سوس قريبة ، انتظري ! سوف اسألها .

التفتت العشبة نحو عشبة عرق السوس تسألها فأجابت :

ـ هناك في الشارع الكبير الاطباء الكثيرون ، كل اللافتات المكتوبة بحروف ذهبية هي عيادات طبية .

قالت العشبة الصغيرة للنحلة بشيء من الالحاح :

ـ اذن اسرعي فورا الى الشارع الكبير واسألي عن طبيب . هل تستطيعين ان تطيري ؟ اذا استطعت ان تطيري فاطوي ساقك المجروحة حتى لا تصيبها صدمة جديدة .

ـ اشكرك كثيرا ، سوف اعمل بنصيحتك ! لا ازال استطيع الطيران . ان ساقي هي المجروحة ولكن شدة الألم جعلت جناحي لا يقويان على حملي ، ومع ذلك سوف اطير رويدا رويدا .

قالت النحلة ذلك ثم حركت جناحيها بكل قوتها وطارت . بعد ان رأت العشبة الصغيرة النحلة تطير راحت تنتظر عودتها بفارغ الصبر لتتأكد من شفائها . فاذا لم تشف النحلة تماما بعد عشرة ايام او اسبوعين فيعني ذلك ان صديقتها المسكينة هذه ستتأخر عن العمل . هكذا كانت تفكر العشبة وهي لا تزال تنتظر عودة النحلة الجريحة .

عادت النحلة والدموع تغمر خديها واجنحتها شبه المقطعة وسقطت على جانبها ارضا وساقها لا تزال مطوية .

قالت العشبة بحدة :

– آه ، يبدو ان الطبيب لم يعالجك ؟!

– ذهبت ادق ابواب اطباء الشارع الكبير جميعا ولكن احدا منهم لم يشأ ان يعالجنى !

– وهل جرحك خطير الى درجة لا تقبل معالجة او شفاء ؟!

– لا ، قبل ان يلقوا نظرة على ساقى طلبوا اجورا مرتفعة . قلت لهم ليس عندى مال . فقالوا لى لا علاج بلا مال . فسألتهم : انتم الاطباء اختصاصكم هو معالجة الآخرين أ ليس كذلك ؟! انا جريحة فلماذا لا تعالجوننى ؟ فأجابوا : اذا كان واجبنا الاعتناء بكل مرضى أ ليس معنى هذا اضاعة وقتنا كله عبثا ؟! فأجبتهم : انتم تعرفون مهنة الطب . عليكم اذن ان تكرسوا كل جهودكم لمعالجة الناس فكيف تقولون ان فى هذا مضيعة للوقت ؟! فردوا على بصراحة : لا نستطيع ان نبدد جهودنا هكذا . الفكرة التى تحملينها عنا فكرة مثالية ، نحن لانعرف الا القبض اولا والمعالجة ثانيا ! عندئذ سألتهم : انتم لا تتكلمون الا عن الاجور ولكن هل المعالجة والمال قرينان لا يفترقان ؟! فقالوا : اسمعى ! من اجل ان ندرس الطب دفعنا اموالا كثيرة سلفا ، كان هدفنا من ذلك ان نكسب من مرضانا اكثر ، فكيف يمكن اذن ان نفرق بين المعالجة والمال ؟! لم يبق عندى ما اقوله ولم يكن عندى مال ادفعه ، لذلك رأيتنى مضطرة الى ان اعود حاملة ساقى الجريحة . لم يخطر فى بالى مطلقا يا صديقتى ان فى العالم اطباء لا يعالجون مرضاهم الا بالمال !

انتاب الحزن العميق النحلة ولم تعد تستطيع ان تحفظ توازنها فاضطرت الى الاعتماد على ساق العشبة الصغيرة .

من جديد شعرت العشبة الصغيرة بالخجل فانكمشت وريقاتها الصغيرة التى تشبه اسنان مشط مكسر وانهارت مثلما يطأطئ طفل خجول رأسه ويسبل ذراعيه . احست

بالخجل بسبب الظلم فى هذا الكون حيث يرفض الاطباء معالجة المرضى .

بعد قليل جاء احد الاهالى فاشترى تلك العشبة الصغيرة وحملها فى اصيص ووضعها امام باب بيته . كان سقف البيت مغطى بالقش والجدران مبنية من الطين ، لم يكن للبيت نافذة وانما باب منخفض ضيق . فاذا وقفت فى العتبة فلا ترى فى الداخل الا ظلاما . قرب بيته كانت بيوت كثيرة مثل ذلك البيت . تلك البيوت المسقوفة بالقش كانت تمتد على جانبى زقاق ضيق تغمره الوحول وبرك الماء واسراب الذباب . البرك كانت سوداء قاتمة تطفو فوقها طبقة من الزيت براقة ، فاذا نظرت اليها عن كثب فرأيت اشياء تتحرك : يرقات بعوض لا يحصى عددها تسبح فى تلك المياه الآسنة .

كانت العشبة الصغيرة تنظر فى كل اتجاه عندما لمحت فجأة بعض رجال الشرطة ببزاتهم الرسمية ينادون صاحبها الجديد ويخاطبونه بلهجة تأنيب وعنف :

ـ لقد طلبنا منك ان ترحل من هنا ! لماذا انت لا تزال هنا ؟!

اجاب الرجل بصوت حزين ووجه بائس :

ـ لم اجد مكانا ارحل اليه .

ـ احمق ! فى المدينة عدد كبير من البيوت الخالية ، تحتج بأنك لا تجد مكانا ترحل اليه ولا تفكر فى ان تستأجر بيتا !

ـ استئجار بيت يحتاج الى مال وليس عندى مال .

قال ذلك وهو يفتح راحتيه الفارغتين .

ـ ولماذا ليس عندك مال ؟! ان اكواخكم المتهدمة خطر على المدينة ! فاذا حدث حريق فسوف يمتد الى مئات البيوت فى لحظة ، ثم انها وسخة جدا ، فاذا حدث وباء فسوف تكون الضحايا اعدادا كبيرة ، كان من اللازم تهديمها منذ وقت بعيد ، اما الآن فلا يمكن ان نؤجل عملية التهديم . هنا سوف نبنى سوقا جديدة جميلة وسوف يبدأ العمل بعد غد . امش ! ارحل بسرعة ، دبر رأسك ! العناد لاينفعك ابدا !

قال الرجل بلهجة غاضبة :

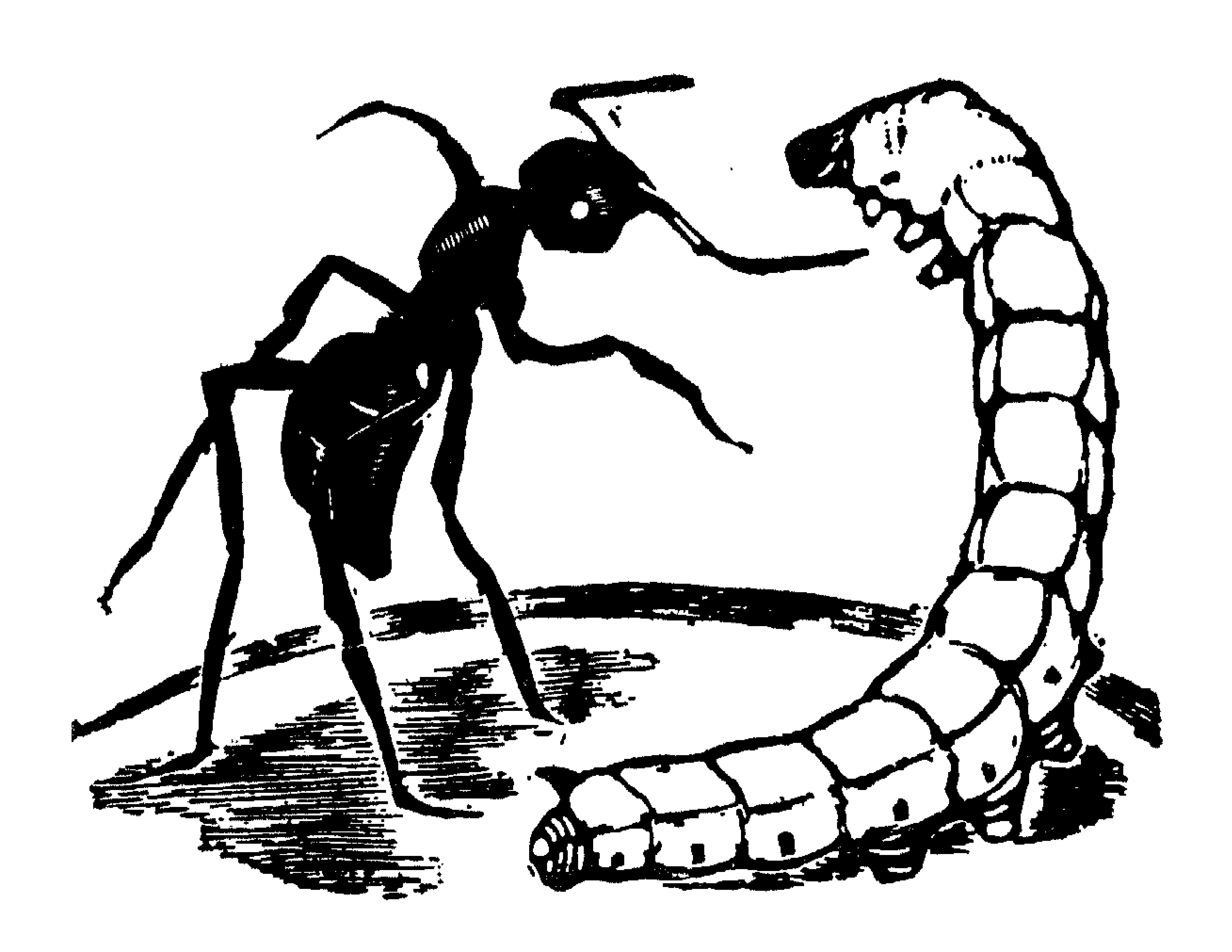
ـ ارحل الى اين ؟! هل تريدون ان افترش الارض والتحف السماء ؟!

ـ هذا لا يهمنا ! اذهب حيث شئت ! المهم ان ترحل من هنا .

عندئذ انقض رجال الشرطة على الكوخ . امسك احدهم شيئا ورماه الى الخارج فسقط على الارض محدثا دويا . كان ذلك الشيء قدرا تدحرجت فاصطدمت بالاصيص حيث العشبة الصغيرة فهشمته !

مرة ثالثة احست العشبة الصغيرة بالخجل فانكمشت وريقاتها الصغيرة التى تشبه مشطا مكسرا وانهارت مثلما يطأطئ طفل خجول رأسه ويسبل ذراعيه . لقد شعرت بالخجل بسبب الظلم فى هذا الكون حيث تبنى سوق جديدة جميلة دون الاكتراث بمصير الاهالى اصحاب البيوت المهدمة .

هذه العشبة الصغيرة يسميها الناس " العشبة الخجولة " ولكنهم لا يعرفون ان سبب حساسيتها وخجلها انما جاء مما رويته لكم .



دودة القز والنملة

مثل صوت رذاذ خريفي تسه ! تسه ! تسه ! كانت ديدان القز تقضم وريقات التوت . كان همها جميعا ان تلتهم وريقات التوت كيفما كانت وكأنها ما جاءت الى هذا العالم الا للأكل .

بعد لحظة اختفت وريقات التوت ولم يبق منها الا اليافها ، وبدأت اجسام الديدان البيضاء الرمادية تظهر وتتجمع اكواما تغطى فضلات الاوراق ، اكواما تتحرك وتتلوى مثل مويجات بحرية . جاء الرجل المكلف بها يغطيها بطبقة جديدة كثيفة من الاوراق فعادت الاصوات من جديد اكثر قوة كأنما هى انهمار امطار بعد ريح خريفية .

كانت هناك دودة مكومة عند حافة طبق البامبو ترفع رأسها لا تأكل ولا تتحرك . هل كانت صائمة ؟! هل هى شبعانة ؟! لا ، لا شىء من هذا ، انها كانت تفكر . ان نظرة واحدة اليها توحى بأنها تعانى مشكلة وتذكرك بتمثال المفكر .

يكفى ان تفكر جيدا وبعمق حتى تصل الى حل .

فكرت اول ما فكرت ، لماذا جاءت الى هذا العالم هل جاءت فقط لتقضم اوراق التوت . راجعت تاريخ اجدادها ، ما هو ماضيهم ؟! بعد ان اكل الاجداد كمية كافية من اوراق التوت بدأوا بصناعة الشرانق ثم يأتى الرجال فيرمون هذه الشرانق فى الماء الغالى ويستخرجون منها خيطان الحرير يصنعون منها الثياب الفاخرة .

فهمت عندئذ ان ديدان القز انما جئن الى هذا العالم لصنع الشرانق . اكل ورق التوت لم يكن هو الغاية انما كان الوسيلة فاذا لم تؤكل اوراق التوت لم تصنع الشرانق . اذن من اجل صنع الشرانق يجب اكل الورق اولا .

احست بشيء من الفتور عندما وصلت الى هذه النتيجة . ان ذلك العمل الشاق الذى تقوم به انما كان لخدمة " اناس " لاصلة لهم بدود القز . لذا اضربت عن الاكل وتكومت ساكنة عند طرف طبق البامبو .

فرشت طبقة جديدة من الاوراق فوق الديدان ، فاستؤنفت الهسهسة الشبيهة بصوت المطر من جديد . اما هى فقد ظلت وحدها تترفع عن النظر اليها .

سمعت بقربها صوتا يخاطبها :

ـ يا صديقتى ، هذا طعام جديد ! لماذا لا تأكلين ؟ اذا تأففت وتدللت لن يبقى لك ما تأكلين !

لم تلتفت الدودة بل قالت لنفسها : انتم لا تعرفون الا الاكل ، الا كل ، معدتى ملآنة متخمة ، لا اريد ان آكل !

ـ ربما اكلت شيئا اطيب من هذا ؟!

قالت ذلك ودون ان تنتظر جوابا راح فمها يقضم حافة الوريقات الخضراء .

ـ شيئا اطيب ؟! ألا تستطيعين ان تتوقفى عن الاكل وتشغلى دماغك قليلا ؟! انا متخمة لأننى سئمت ، سئمت فوق السأم !

ـ مم سئمت ؟!

ـ سئمت ماذا ؟ سئمت العمل . لقد قررت ان لا اعمل من الآن فصاعدا . لقد نظمت اغنية سأغنيها لك ، اسمعى :

ما قيمة العمل ؟!
لا طعم لا معنى ،
جهد بلا جدوى ،
فليسقط العمل !
نمتع الانظار
بالارض والسماء ،

وهكذا الاعمار
تمضى بلا عناء !

ولكن الدودة التي كانت تتكلم معها لم تنتظر نهاية الاغنية بل زحفت تقضم ظهر وريقة اخرى . اما الديدان الاخريات فلم ينتبهن الى ان احدى صديقاتهن قد اضربت عن الطعام .

ما قيمة العمل ؟!
لا طعم لا معنى ،
. . . . . .

زحفت الدودة وهى تغنى اغنيتها الجديدة خارج الطبق . ما يمنعها اذن ان تغادر مكان العمل بعد ان قررت ان لا تعمل ؟ لقد بدأ يغضبها ان ترى رفيقاتها الحمقاوات اللواتى لا هم لهن الا قضم الاوراق . زحفت حتى اسفل الرفوف تحاول ان تبتعد بأسرع ما يمكنها ، لذا كانت تتحرك بسرعة حتى خرجت من البيت ووصلت الى الارض الفضاء .

هناك توقفت وراحت تصغى ، لم تعد تسمع صوت رفيقاتها وهن يقضمن اوراق التوت . عندئذ رفعت رأسها وبدأت حياتها الجديدة " نمتع الانظار بالأرض والسماء " و" ليسقط العمل " .

فجأة احست بقرصة مؤلمة فى ذيلها ، فتكورت على نفسها ثم التفتت حولها فرأت نملة .

كانت النملة تحدث نفسها : لم يخطر فى بالى ابدا انها مازالت حية .

— هل كنت تظنين اننى ميتة ؟!

— كنت منطرحة على الارض مثل عود الحطب فظننت انك ميتة منذ ثلاثة ايام على الاقل .

ـ انت تجدينني هزيلة أليس كذلك ؟

ـ بلى ! ولكن لماذا انت هزيلة الى هذا الحد طالما انت مازلت على قيد الحياة ؟!

ـ السبب انني مضربة عن الطعام !

ـ حقا ؟ لماذا ترغبين فى الانتحار لماذا تريدين ان تموتى جوعا ؟!

ـ انا اكره العمل . ادركت ان الاكل ليس الا من اجل العمل ! لذا قررت ان امتنع عن الطعام . لقد نظمت اغنية اغنيها لك ياصديقتى الصغيرة .

عندما سمعت النملة الاغنية التى كانت تنشدها الدودة الخائرة القوى لم تملك نفسها عن الضحك وقالت :

ـ من اين جاءتك هذه الفكرة الغريبة ؟ رفض العمل أليس معناه رفض الحياة ورفض الجنس الذى ننتمى اليه ؟!

بهتت الدودة وراحت تنظر الى النملة متنهدة :

ـ الحياة والجنس هذا لا معنى له فى رأيى . عندما افكر فى سلقى بالماء الغالى من اجل خيط صنعته . . . اشعر بأن الجحيم يفغر فاه امامى !

ـ لم اسمع احدا يتحدث بمثل هذا ! ربما ارهقك العمل فتعبت اعصابك ، عندنا نحن ايضا اغنية احب ان تسمعيها ، ربما تساعدك على تغيير افكارك .

ـ انتم ايضا عندكم اغان ؟!

ـ نعم كلنا نعرف الغناء وعندما نبدأ الغناء نشعر بأن افكارنا تتفتح وتنجلى .

عندئذ بدأت النملة تغنى وهى تحرك لوامسها حركات ايقاعية :

عاش العمل ،
حياتنا العمل .
ثروتنا العمل ،
سعادة الحياة فى العمل .
حياتنا رخاء ،

وعيشنا صفاء .
عمل ! عمل !
نشيدنا بلا كلل ،
عاش العمل !
عاش العمل !

قهقهت النملة ضاحكة بعد ان انهت نشيدها ثم رفعت رأسها وحركت ساقيها وراحت ترقص ، ثم راحت تسأل الدودة وهى لا تزال ترقص :

ـ اغنيتنا الطروبة اجمل ام اغنيتكن الحزينة المشؤومة ؟ قولى لى اى الاغنيتين تولد مستقبلا مشرقا ؟

خيل للدودة ان تلك الحشرة الصغيرة لا تعرف شيئا وانها مثل بقية رفيقاتها لا هم لها الا قضم اوراق التوت فوق اطباق البامبو واذا لم يكن هذا كذلك فمن اين جاءها هذا الفرح العارم ؟ فسألتها :

ـ اظن ان ليس هناك مرجل من الماء الغالى ينتظرك أليس كذلك ؟

هزت النملة رأسها وقالت :

ـ نحن نفضل الماء البارد ، عندما نعطش نذهب نرتوى من تلك البركة الصافية المياه هناك !

ـ ليس هذا ما اعنيه ! اسأل هل هناك " اناس " يسلقونكن فى الماء الغالى لاستخراج الخيوط منكن ؟ هذا سؤالى !

ـ اى " اناس " ؟ لم افهم !

شاءت الدودة ان تشرح لها ولكنها لم تعرف كيف تفهمها ذلك . لذا ظلت فترة ساكنة ثم قررت ان تطرق الموضوع من زاوية اخرى فسألت :

ـ عملك لا فائدة منه على ما اظن ؟!

اجابت النملة مستغربة :

ـ لماذا تسألين مثل هذا السؤال ؟ هل يوجد فى هذا العالم عمل بلا فائدة ؟

ـ انا لا اشاركك فى افكارك وانما اسأل هل يوجد فى هذا الكون عمل يصلح لشيء ما ؟!

ـ انت لا تصدقينني . تعالى معى وسوف تفهمين كل شيء ! عملنا دائما ذو فائدة . يكفي ان نبذل بعض الجهود حتى نساهم فى تنمية الثروة الجماعية وازدهار الجماعة !

ـ لا استطيع ان افهم ما تقولين ، لا اعرف الا شيئا واحدا وهو ان نتيجة هذا العمل هى ان الجماعة كلها سوف تسلق فى الماء الغالى .

بدأت النملة تفقد صبرها فقالت :

ـ ايتها السيدة العنيدة لن تفهمى ما اقول ! من الافضل ان تذهبى معى وترى الاشياء بعينيك الاثنتين ! الآن عندى عمل . يجب ان ابحث عن طعام ولا استطيع ان ارافقك انما اعطيك رسالة توصية .

قالت هذا ثم رفعت قدمها الامامية وكتبت رسالة التوصية . كان خط هذه الرسالة يتطلب مجهرا لقراءته اذا حاول الانسان ان يقرأ .

اخذت الدودة الرسالة ثم قالت بفتور :

ـ اشكرك ! لا ارغب فى العمل ، ولا شيء يضطرنى للبقاء هنا ، ولا بأس ان اذهب وارى !

افترقتا . هرولت النملة مستعجلة ، ركضت مسافة ثم توقفت ونظرت هنا وهناك ، ثم غيرت اتجاهها واستأنفت ركضها مسرعة ، وراحت الدودة تزحف متثاقلة كأنما كل حلقة من حلقات جسمها تود ان تستريح بعد ان تتحرك حركة صغيرة .

زحفت الدودة رويدا رويدا واخيرا وصلت الى بلاد النمل . قدمت رسالة التوصية الى الحارسة الواقفة امام الباب فتلقتها بالترحاب ثم جاء الدليل يرشدها الى مشاهدة مختلف الاعمال : نقل الحبوب وبناء الطرقات والبيوت ورياض الاطفال ثم قادها لزيارة الامكنة الاخرى : الانفاق وقاعة الاجتماعات ودور الحضانة ومخازن الحبوب . خيل اليها انها تزور عالما آخر ولاحظت ان الحماسة تغمر الجميع وان كل واحدة

تبذل اقصى جهودها ونشاطاتها بفرح وسعادة . حقا ان حياتهن العمل .

بعد ان اطلعت الدودة على احوال قرية النمل عقدت النمال اجتماعا ترحيبيا غنى فيه الجميع الاغنية التى سمعتها من النملة :

عاش العمل ،
حياتنا العمل .
ثروتنا العمل ،
سعادة الحياة فى العمل .
حياتنا رخاء ،
وعيشنا صفاء .
عمل ! عمل !
نشيدنا بلا كلل ،
عاش العمل !
عاش العمل !

اصغت الدودة الى تلك الاغنية بخشوع وعندما سمعت " عمل ، عمل ، نشيدنا بلاكلل " لم تستطع ان تحبس دموعها ، عندئذ اقتنعت ان ليس فى الكون عمل بلا فائدة . لقد كانت النمال على حق فى تمجيد العمل .

"لغة الحيوانات"

التقى عصفور دورى وسنجاب فوق شجرة شربين .

قال السنجاب :

ـ يا اخى الدورى هل عندك اخبار جديدة ؟

اجاب الدورى وهو يهز رأسه :

ـ نعم ، نعم ، سمعت منذ وقت قريب ان الجنس البشرى يحتقرنا ويقول بأن ليس لنا الحق مثلهم فى ان نفتح افواهنا او نعبر عن افكارنا !

قال السنجاب :

ـ غريب ان يقال مثل هذه الاشياء !

ثم يغمز بعينه وهذا يعنى انه يفكر بعمق : من الطبيعى ان نفتح افواهنا لنتكلم ونعبر عن افكارنا ، كيف يمكن ان يقال بأن لا حق لنا بذلك !

قال الدورى :

ـ لقد اوجزت كثيرا . ان الحجة التى يستند اليها البشر هى ان لغتهم هى الأسمى وان لغتنا هى الأدنى ، وان الفرق بينهما فرق بين الثرى والثريا ! لغتهم يمكن ان تكون منطوقة ، يمكن ان تحفر على الصخر وان تذاع بالراديو . اما لغتنا فلا !

ـ من اخبرك بهذا ؟

ـ عرفت هذه عن طريق احد الاختصاصيين فى التربية . . . امس احببت ان اتسلى فطرت الى سطح بيته واسترقت النظر الى الداخل ، فرأيته منكبا على المكتب يحرر مقالة . كان موضوعها " لغة الحيوانات " فلفت نظرى ذلك العنوان . كيف يتكلم



عنا ؟! لم استطع ان املك نفسى عن متابعة القراءة . كان يكتب عن كتب النصوص والقراءة فى الصفوف الابتدائية لابناء البشر . ان قسما كبيرا من كتب المرحلة الابتدائية يحتوى على نصوص " لغة الحيوانات " وبهذا تسمح النصوص بأن يصبح التلاميذ رفاقا واصدقاء للحيوانات فما الجدوى من ذلك ؟! ويضيف ان الكثيرين من رجال التربية يعتبرون هذا انحطاطا للجنس البشرى وان التلاميذ اذا استمروا فى قراءة " لغة الحيوانات " فان افكارهم سوف تصبح مشوشة وسلوكهم غير سوى وانهم سوف يصبحون اشباها للحيوانات . ويستنتج من ذلك ان من الضرورى الغاء تلك النصوص الواردة على السنة الحيوانات الغاء تاما من المدارس الابتدائية وعندئذ ينبثق الامل فى ان ينطلق تعليم الجنس البشرى فى طريق النور !

قال السنجاب وهو يحك ذقنه بقدمه اليمنى الامامية :

ــ نحن نتكلم لغتنا الخاصة ولم نطلب ابدا من البشر ان يوردوا هذه اللغة فى برامجهم المدرسية ! فلماذا يدعون اذن ان لغتنا لا تستحق اهتمامهم وهم فى الوقت نفسه يثبتونها فى مؤلفاتهم ؟! فاذا حدث تشويش فى اذهان التلاميذ وانحرف سلوكهم فهل من الضرورى ان نكون نحن المسؤولين عن ذلك ؟! الحق ان الجنس البشرى غبى ومغرور !

ــ ان ما يزيد فى غضبى هو هذا الاحتقار الذى يبدر من ذلك الاختصاصى نحونا . ماذا يعنى قوله " لهذا تسمح النصوص بأن يصبح التلاميذ رفاقا واصدقاء للحيوانات فما الجدوى من ذلك ؟! " وماذا يعنى بقوله ان افكارهم سوف تصبح مشوشة وسلوكهم غير سوى وانهم سوف يصبحون اشباها للحيوانات ؟ " اذا اصبح التلاميذ اصدقاء للحيوانات فهل فى هذا اهانة لهم ؟ وهل افكارنا نحن ، دون غيرنا ، هى المشوشة وسلوكنا هو المنحرف ؟ وهل افكارهم هى الافكار الصافية وسلوكهم هو السلوك الاقوم ؟!

قال الدورى ذلك ثم نفخ صدره بعنف مثلما يفعل عندما يلتفت بغضب نحو رقع الثلج المتساقطة .

ادرك السنجاب بذكائه الفطرى مايجول فى ذهن الدورى فابتسم وراح يعزيه :

ـــ ولم الغضب ؟! هم يستخفون بنا ! طيب ! نعاملهم بالمثل ونستخف بهم ! فى كل شىء يجب ان نبحث عن الحقيقة . عندئذ فقط يمكن تنمية الادراك والخبرة . اعتقد ان الذى يجب ان نتفحصه الآن هو : هل صحيح ان لغة بنى البشر هى الأسمى كما يعتقدون ام لا وهل صحيح ان لغتنا نحن " لغة الحيوانات " تختلف كثيرا عن لغتهم ؟!

كان الدورى لايزال غاضبا فقال :

ـــ اخشى ان تكون لغتهم بالمقارنة مع لغتنا ادنى بكثير وانها لا تستطيع ان تسمو الى مستوى لغتنا نحن .

ـــ يا اخى الدورى ، اظن ان كلماتك لا تزال مغرضة ظالمة . عندما ننتقد شيئا ما من الظلم ان نحكم بلا براهين او حجج ، هذا ليس جيدا . ارجو ان لا تتصرف بهذا الشكل . للحصول على براهين ، من المستحسن ان نذهب لنقوم بالتحقيقات حيث يعيش البشر .

قال الدورى وهو يحرك جناحين استعدادا للرحيل :

ـــ نذهب ! نذهب ! نذهب ! آمل ان نجد هناك عددا كافيا من البراهين ، وبالاستناد الى هذه البراهين سوف نكتب فى نصوصنا الابتدائية ان اسوأ الاشياء واتفهها هو " لغة البشر " وان علينا نحن معشر الحيوانات ان لانتكلم ابدا لغة البشر !

ـــ ألا تزال غاضبا ؟!.هيا ! نرحل ! انت تطير فى الفضاء وانا اركض على الارض واقفز على الاشجار وهكذا يمكن ان تكون سرعتنا متعادلة !

انطلق الدورى والسنجاب معا . وبعد ان اجتازا الاحراش الكثيفة والسهول الخضراء والحقول الذهبية وصلا الى مدينة حيث ازدحم الناس ثم وقفا فوق سطح بيت بثلاثة طوابق .

فى الشارع كان زحام شديد مثل امواج البحر ، كانت رؤوس الجماهير تتقدم ببطء ولم يكن ممكنا احصاء اعدادها . كانوا يتقدمون بضع خطوات ثم يرفعون قبضاتهم فى الهواء ويهتفون :

ـ عندنا سواعد ، نطلب عملا .
ومن ثم يهتفون وهم يقرعون بطونهم الخاوية :
ـ عندنا بطون ، نطلب طعاما .
كانت الهتافات تدوى مثل الرعود المتلاحقة .
بعد ان اصغى السنجاب فترة قصيرة التفت نحو الدورى وقال :
ـ هذه الجمل من لغة الناس تبدو لى جملا صحيحة . بما ان عندهم سواعد فهم يطلبون عملا وبما ان لهم بطونا فهم يطلبون طعاما ، هل هناك شيء ابسط من هذا واوضح من هذا واصح من هذا ؟!
عندما هز الدورى رأسه محاولا ان يتكلم حدثت فجأة فوضى كبيرة فى الشارع : عشرات الرجال يلبسون زيا موحدا ، كانوا يتقدمون متراكضين وهراوة بيضاء فى يدهم ومسدس اسود لماع معلق بحزامهم . وما ان اقتربوا من الجمهور حتى انتشروا ثم رفعوا عصيهم البيضاء وراحوا يضربون فى كل اتجاه لتفريق الجمهور . ولكن الجمهور بدلا من ان يتفرق راح يرص صفوفه وراحت رؤوسهم المتلاصقة تشكل مدا صاعدا يتقدم ببطء .
" عندنا سواعد ، نطلب عملا "
" عندنا بطون ، نطلب طعاما "
غضب الرجال حملة العصى البيضاء وراحوا يصرخون :
ـ اسكتوا ! من انتم حتى تثيروا هذه الفوضى ! كلاب تنبح ، غربان تنعق ، سوف نؤدبكم !
لكز الدورى السنجاب بجناحه :
ـ هل سمعت هذه الجمل من " لغة البشر " التى تعتقد انها صحيحة ؟! هؤلاء الرجال حملة العصى البيضاء يقولون انها من لغة الحيوانات ، ولا يسمحون للجمهور بأن يرددها . لا اعتقد ان مصدر ذلك هو الغباء او الغرور انما هناك سبب ابعد من هذا .

اضاف السنجاب :

ـ هناك سبب آخر لا شك فى ذلك ، هناك سبب آخر لا شك فى ذلك ، لم ندركه حتى الآن . ولكن هناك شيئا استطعت ان افهمه : البشر يسمون " لغة الحيوانات " الاشياء التى لايحبون ان يسمعوها مثل نباح الكلاب ونعيق الغربان وقس على ذلك من اصوات الحيوانات الاخرى .

ـ لهذا السبب اعتقد انهم يرغبون فى حذف " لغة الحيوانات " من مناهجهم الابتدائية . بينما كان السنجاب والدورى يتحادثان كان الجمهور فى الشارع قد ابتعد رويدا رويدا . كانت الهراوات لاتزال تهوى على الرؤوس من كل جهة ولكن الجمهور ظل متراصا ولا شيء يستطيع ان يمنعه من متابعة هتافاته ، بعد قليل انعطف الجمهور نحو شارع الى اليسار فاختفى عن نظر السنجاب والدورى وبدأت اصواتهم البعيدة تتلاشى فى سمعهما .

لكز السنجاب الدورى فى ظهره قائلا :

ـ لننتقل الى مكان آخر !

ـ طيب !

ما كاد الدورى يسمع اقتراح السنجاب حتى نشر جناحيه وطار وراح السنجاب يتبع ظل الدورى قافزا من سطح الى سطح .

بعد ان قطعا مسافة بكل ما اوتيا من نشاط وصلا الى مكان آخر . فى الساحة العامة اصطف جيش كبير العدد مشاة وخيالة ومدفعية وطائرات ومدرعات . كانت الصفوف متراصة كالبناء المرصوص يخيل لمن يراها من بعيد انها رقعة شطرنج ، كانت وجوه الجنود تتجه كلها نحو تمثال برونزى . كان تمثالا لخيال يلبس خوذة حربية ، ذى شاربين ضخمين معقوفين يبدو شكله فريدا لا نظير له فى هذا العالم .

قال الدورى :

ـ لنشاهد شيئا طريفا من هنا !

قال ذلك ثم حط فوق شارب التمثال الايمن بينما قفز السنجاب وقعد فوق

الشارب الايسر فزاد ذيله فى ارتفاع عقفة الشارب . فاذا التفت المرء الى فوق ظن ان النحات قد اغفل تهذيب الشارب الايسر .

فجأة بدأت الطبول تدوى والابواق تصدح وتنكب الجنود سلاحهم وقدموا التحية . صعد رجل المنصة المنصوبة عند قدمي التمثال . كانت وجنتاه بارزتين وفمه شبيها بفم فرس البحر وعيناه جاحظتين ! وقف وقفة الاستعداد امام التمثال ثم التفت نحو العسكر وبدأ يخطب فبدا كأنما يتكلم من بطنه وكأنما كلماته شريط من المفرقعات :

— ان اعداءنا هم اوحش شعوب العالم . سوف نخضعهم بفضل حضارتنا ، بفضل بنادقنا ، بفضل مدافعنا ، بفضل طائراتنا ، بفضل دباباتنا ، سوف نرغمهم على ان يركعوا تحت اقدامنا وتحت رحمتنا . انهم مازالوا يجرؤون على الكلام عن المقاومة ، عن الدفاع عن بلادهم ، ليس كلامهم هذا الا صوى خنازير وجعجعة بط . اليوم نمشى وبقوانا من الرجال المتمدنين سوف نرغم هؤلاء البرابرة على ان لا يجرؤوا على الصوى والجعجعة !

قال السنجاب بصوت خفيض وهو يرفع رأسه :

— هذا ايضا ما يسمونه لغة الحيوانات ، لغة الحيوانات هى الاشياء التى لا يحبون سماعها !

قال الدورى :

— اذا استعملوا البنادق والمدافع فمعنى هذا انهم يذهبون للقتل والتدمير ، كيف يكون هذا العمل عمل رجال متمدنين ؟

— ربما كان الشيء الذى سماه الخطيب " بربرية " و " حضارة " فى لغة البشر لا ينطبق تماما على مفهومنا نحن عن البربرية والحضارة .

— فى مفهومهم يجب ان يكون النمر الشرس والنسر المتوحش فى عداد المتمدنين وفى مقدمتهم . اما نحن فاننا نعتقد ان النمر والنسر هما من اشرس المخلوقات لأنهما من اقسى الكائنات ولسنا فى شدقهم اكثر من لقمة .

قال السنجاب ساخرا :

— لو كنت انسانا لقلت بالتأكيد ان هذا الخطيب يستعمل " لغة الحيوانات".

قال الدورى وهو يلفت نظر السنجاب :

— انظر ! لقد تحركوا . فلنتبعهم لنرى كيف يعاملون اولئك الذين يسمونهم برابرة .

انزلق السنجاب حتى اسفل التمثال واسرع يتبع العسكر . بعد قليل ركب العسكر السفن لاجتياز البحر فاختبأ السنجاب بين عربات المؤونة والذخيرة . اما الدورى فقد كان يحط تارة على صوارى السفن وطورا يطير الى حيث عربات المؤونة والذخيرة يلتقط شيئا يأكله ويدردش مع السنجاب . وكانا معا يمتعان نظرهما بالبحر والسماء ولم يحسا بأى ملل خلال تلك الرحلة .

بعد بضعة ايام نزل الجيش الى البر ، لقد وصل الى بلاد البرابرة ، راح السنجاب والدورى يتلفتان فى كل جهة : الارياف تشبه الارياف والمدن تشبه المدن والناس يشبهون الناس ولم يستطيعا ان يفهما اين هى البربرية !

ابتعدا عن العسكر وتقدما فى داخل البلاد . بعد قليل وصلا الى ميدان واسع اصطف فيه جيش آخر . كان الجنود هنا يحملون رماحا او بنادق قديمة ولم يكن لديهم اى مدفع او دبابة او طائرة .

— يا اخى الدورى الآن بدأت افهم !

— تفهم ماذا ؟

قال السنجاب وهو يشير باصبعه نحو هذا الجيش :

— الذين لا يحملون رشاشات وليس لديهم مدافع ودبابات وطائرات مثل هؤلاء الرجال يسمون " برابرة " وعلى عكس ذلك يسمى " متمدنون " اولئك الذين جئنا معهم وهم يملكون كل انواع الاسلحة .

اراد الدورى ان يضيف بضع كلمات الا انه سكت عندما شاهد رجلا يتقدم فى مواجهة الجنود ، رجلا ذا لحية سوداء طويل القامة ترسل عيناه بريقا من الغضب ، وخاطب الجنود بصوت قوى قائلا :

— لقد وصلت جيوش الاعداء الى ارضنا الآن . هم يريدون ان يذبحونا وينهبونا ،

هم اسوأ من قطاع الطرق ، وليس امامنا الا شيء واحد هو المقاومة بشجاعة !

هتف الجنود وهم يلوحون ببنادقهم ورماحهم :

ـ نقاوم بشجاعة !

ـ نقاوم حتى آخر قطرة من دمائنا فان لم نقاوم فليس امامنا الا الموت !

عندما سمع الدوري هذه الكلمات تأثر تأثرا بالغا وترقرقت الدموع فى عينيه وقال :

ـ لو كنت رجلا فانى سوف اقول بكل صدق ان هذا " لغة البشر " .

ولكن السنجاب اضاف معلقا :

ـ الا تذكر ما قاله الخطيب الآخر فى السابق ؟! ان ما يقوله هؤلاء الناس هنا ليس الا صوى خنازير وجعجعة بط .

اجاب الدورى بعد برهة تفكير :

ـ الآن بدأت اقتنع بأن " لغة البشر " ليست كلها اسوأ الاشياء واتفهها . فى البدء كنت اعتقد ان " لغة البشر" لا توازى "لغة الحيوانات " ، عندئذ قلت لى انه لا يجوز ان اطلق احكاما مغرضة والحقيقة انك على صواب . كان حكمى مغرضا مجحفا .

ـ فى رأيى يمكن ان نقسم البشر الى قسمين : قسم يتكلم بعقل وقسم يتكلم بلا عقل . ومع انهم يزعمون جميعا انهم يتكلمون لغة البشر الا انهم فى الحقيقة مختلفون اختلافا تاما . اما لغتنا نحن " لغة الحيوانات " فهى شيء آخر . نحن نتكلم مستندين الى المنطق والعقل ، واحد هو واحد ، اثنان هما اثنان ، هذا شيء لا يحتمل الخطأ . هذا هو الفرق بين " لغة البشر" و " لغة الحيوانات " .

فى هذه اللحظة سمع صوت هدير . فى السماء بدا شبح اسود كأنما هو نسر . وفى الارض تفرق الجنود جماعات صغيرة واتجهوا للاختباء فى اركان الغابة . بدأ هذا الشبح يكبر كلما تقدم . كان ذلك طائرة . دارت تلك الطائرة بضع دورات فى الفضاء ثم اسقطت شيئا بلون الفضة .

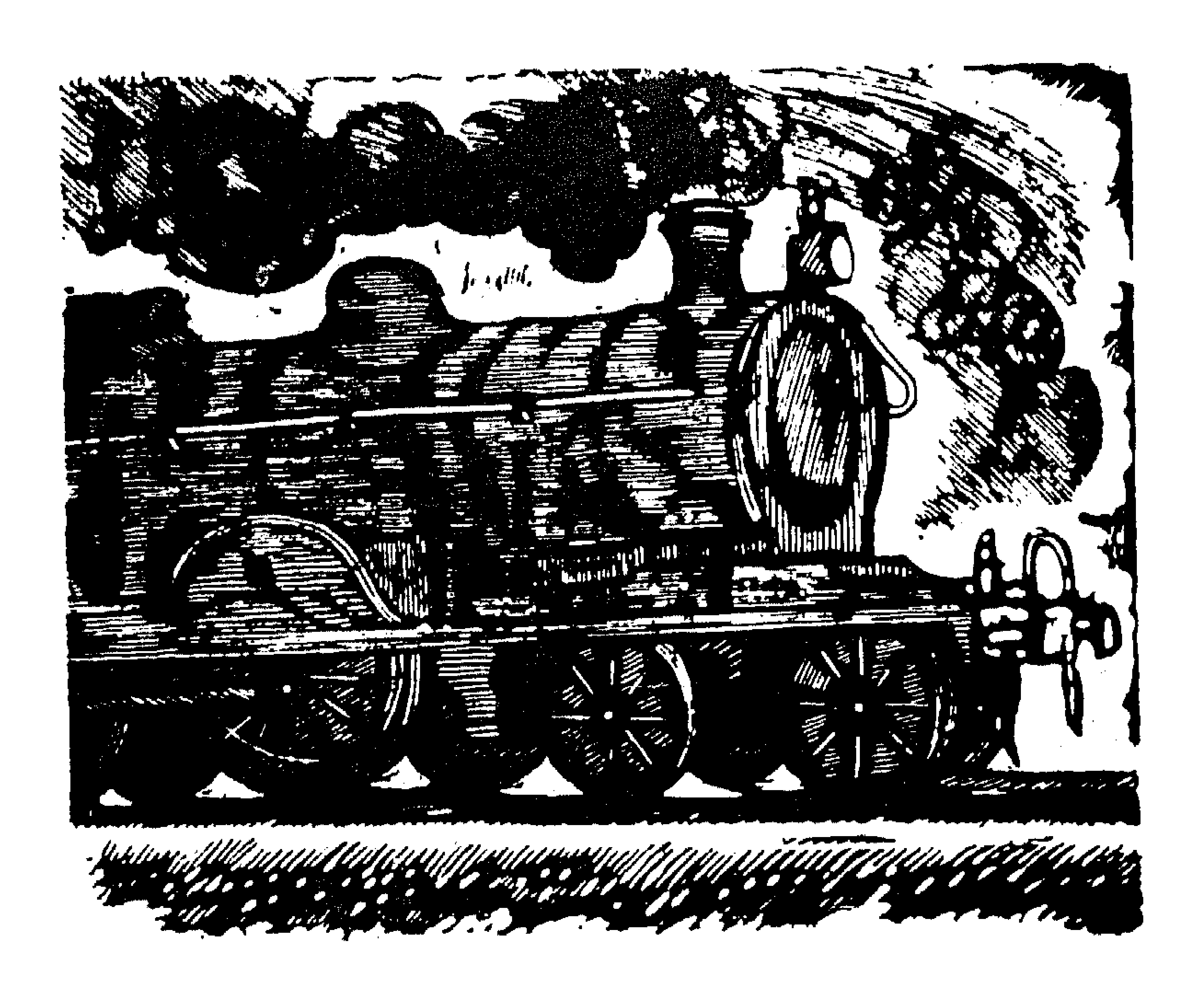
بم !

ومع ذلك الانفجار المدوى الذى ارهب السماء وزعزع الارض ، ارتفعت فى الهواء اشلاء اشجار واجساد وتراب كأنما اعصار هائل قد ضرب ذلك المكان .

تقطعت انفاس الدورى من الخوف ففتح جناحيه وطار بكل ما اوتى من قوة . ولم يتوقف فى طيرانه الا عند ساحل البحر ، ولكن رائحة البارود ظلت تلاحقه .

ظل السنجاب محافظا على رباطة جأشه الى حد ما . انطلق هاربا بين اشلاء القتلى والجرحى والغبار والبارود . فكان يلتقي بأناس هاربين مثله يجرون مواشيهم ، يحملون اولادهم بين ايديهم وعلى اكتافهم حاجاتهم اليومية . ولكنه لم يستطع ان يجد صديقه فراح يخاطب نفسه : اخشى ما اخشاه ان يكون اخى الدورى قد تحول الى اشلاء !

ـ عام ١٩٣٥ ـ



قصة قاطرة

خرجت من مصنع بريطانى وجئت الى الصين لأخدم الصينيين . لى كرش كبير جدا لا يفتأ العمال يتخمونه بالفحم الاسود اللماع ، فأظل آكل وآكل ولا اشبع ! اهضم الفحم فى كرشى ، فأستمد منه قوة تنتشر فى كل انحاء جسمى ، عندئذ اشعر بحماسة للركض الى الامام ، ولا احس بالراحة الا بعد ان اقطع مئات ومئات من الكيلومترات. ولى ثمانى عجلات كبيرة هى اقدامى ، قوية وسريعة اقوى من اقدام اى كائن حى . يكفى ان احرك عجلاتى حتى اخلف ورائى اسرع الخيول فى العالم ، ولى عين كبيرة تستطيع حتى فى الظلام عندما يختفى القمر والنجوم ان ترى الطريق الممتدة امامى بوضوح . ولى صوت جهير يكفى ان اهتف " هوو . . . هوو . . . " حتى ترتجف الاشجار على جانبى الطريق ، وحتى تضطرب السحب فوق رأسى كالامواج .

جئت الى الصين منذ عدة سنوات فسيرونى على خط نانجينغ — شانغهاى الحديدى حيث اعمل ذهابا وايابا . استطيع ان اصف بعينين مغمضتين مناظر الطريق التى اجتازها ، والنفق الذى يخترق جبل باوقاى ، وابراج المعابد على اختلاف اشكالها فى بضع مدن ، وبحيرة يانغتشنغ المشهورة بسرطان المياه العذبة ، ومدينة ووشى حيث ترتفع اعداد من المداخن . استطيع ان ادلكم بلا خطأ عن موقع كل غيضة من غياض البامبو وعن الزوجين العجوزين اللذين يسكنان الكوخ خلف تلك الغياض وعن موقع كل جسر حجرى وما هى القوارب التى اعتادت ان ترمى شباكها قرب تلك الجسور .

انتم تدركون جيدا اننى الفت هذا الطريق تماما ! انا اقطعه كل يوم مرتين !

احب كثيرا ان اخدم الناس . ولى قوة عظيمة واستطيع الجرى السريع . كم اسأم

وكم اتعذب اذا بقيت قوتي يوما ما بلا استخدام واذا توقفت بلا حراك في مكاني مثل جثة هامدة . الذين اخدمهم كلهم لطفاء منهم الطلاب الذين يذهبون الى مدارسهم ، الفلاحون الذين يذهبون لبيع حبوبهم وخضرهم ، الامهات العجائز اللواتي يذهبن لزيارة بناتهن حاملات اليهن الهدايا في السلال ، السائحون الذين يزورون المناطق المشهورة وهم يحملون دليلهم السياحي تحت ابطهم . كلهم يقومون بأعمال معقولة ، هم يستقبلونني بحرارة . فمن الطبيعي ان اقدم اليهم بعض المساعدة .

ومع ذلك فقد تمر بي بعض الفترات الصعبة . ولا ادرى من اصدر الامر بأن انقل رجلا واحدا بمفرده . الطلاب والفلاحون والامهات العجائز والسواح لم يحضر اى واحد منهم ، كان على اذن ان اخدم شخصا واحدا بمفرده . خدمة انسان بمفرده أليس هذا العبودية بعينها ؟! عندما جاء ذلك الرجل كان محاطا بعدد من الرجال ذوى البزات الرسمية يتزنرون بالرصاص وفي ايديهم المسدسات . لم يكن لهؤلاء مهمة الا حراسة ذلك الرجل وحده . لقد كانت حياتهم اذن حياة العبيد ! مساكين هؤلاء الناس !

اخيرا عرفت السبب في سفر هذا الرجل وحده فأغضبني ذلك غضبا لا يوصف . انه يسافر ليلتقي بصديقه الذى لم يمض على فراقه له اكثر من ثلاثة ايام ليدردشا عن كل شيء وعن لاشيء وليغتنم تلك الفرصة ليأخذ حماما ساخنا وليذهب برفقة فتاة جميلة الى حفلة راقصة ! لماذا اكون عبدة لمثل ذلك الرجل ؟ من الآن فصاعدا سوف ارفض نقله باتا ! ولكن مع الاسف ان محركاتي هي بأيدى اشخاص آخرين وعندما تبدأ في العمل لا استطيع ان اتوقف عن السير حتى ولو اردت التوقف . " اذن احطم نفسي وفي الوقت نفسه احطم ذلك الرجل البغيض " هكذا كنت افكر ولم يعد قلبي يطاوعني للتمتع بمناظر الطريق . وكانت الاصوات التي اطلقها مفعمة بالغضب كأنها زئير اسد في حديقة الحيوانات .

امس كنت في المحطة ، كرشي متخم بالفحم ، عجلاتي مفعمة بالقوة وعلى استعداد تام للحركة . فجأة انطلقت جماهير من الطلاب نحو المحطة عددهم يتراوح بين الفين وثلاثة آلاف ، فتيان وفتيات في زى رسمي . عمرهم يتراوح بين الثلاثين والثالثة عشرة

او الرابعة عشرة . ملامحهم تشبه . . . تشبه ماذا ؟ آه ، تذكرت ، هى تشبه ملامح اولئك الضباط والجنود الذين قاوموا الغزو اليابانى على اثر احداث ٢٨ يناير ١٩٣١ ، كانوا شجعانا ورابطى الجأش فى آن واحد يخيل لمن يراهم انهم لا يتراجعون خطوة واحدة حتى ولو انهار جبل امامهم . سمعتهم يتحدثون ففهمت انهم يرغبون بأن انقلهم ليشرحوا وجهة نظرهم الى بعض الشخصيات وذلك بسبب خطر داهم يهدد البلاد .

قلت فى نفسى : هذه خدمة مشروعة اقدمها لهم . ان الذهاب لشرح وجهة نظر عندما يهدد الخطر البلاد هو عمل مشروع وهو اهم من الذهاب الى المدرسة او بيع المنتجات الزراعية ، اذن كيف يحق لى ان لا اساعدهم ؟ " تعالوا ، اننى مستعدة لنقلكم ! سأسرع فى سيرى اكثر من العادة لأتيح لكم الوصول فى وقت مبكر الى المكان الذى تقصدونه ! " هكذا كنت افكر وبدأت اردد هتافى مرة بعد مرة : هوو ! هوو ! هوو !

لا شك فى ان الطلاب قد فهموا قصدى وذلك لأنهم قفزوا بفرح الى العربات المقطورة خلفى . ازدحمت العربات بهم بسرعة حتى اضطر بعضهم الى الوقوف على الرفارف والتمسك بمقابض الابواب والنوافذ وكانوا يرددون :

— لن تكون رحلتنا مريحة ، هذا لا يهم ، المهم هو الوصول الى غايتنا .

ولكن ثلة من الشرطة وصلت بغتة . توزعوا على العربات وراحوا يطلبون من المسافرين العاديين ان ينزلوا بسرعة مؤكدين لهم ان القطار لن يسافر ، لم افهم قصدهم من ذلك ، كانت قوتى فى اوجها ، جاهزة لخدمة هؤلاء المسافرين فلماذا يقولون اذن ان القطار لن يسافر ؟ احسست وانا ارى اولئك المسافرين ينزلون وهم يحملون امتعتهم وحقائبهم ، بأننى مذنبة تجاههم ، فغمرنى الحزن والأسى وحدثت نفسى اننى ارغب ان اخدمكم كل يوم ، اما اليوم فما اشد اسفى وحزنى !

بعد ان نزل المسافرون العاديون طلب رجال الشرطة من الطلاب ان ينزلوا ايضا لأن القطار لن يسافر ، فرحت اخاطب نفسى : لابد ان يكون لهؤلاء الطلاب الذين صعدوا الى القطار مبرر للصعود وان تكون لهم مشكلة مهمة جدا وعاجلة جدا ، اظن

انهم لن يرضخوا مثل المسافرين العاديين .

صدق حدسى فقد راح الطلاب يهتفون :

— لن ننزل من القطار ، لن ننزل من القطار ابدا الا بعد وصولنا الى غايتنا .

كان هتافهم شبيها بهدير المد الصاعد .

هوو . . . ، هتفت معهم وكان هذا يعنى اننى انحاز الى صفوفهم وان لدى القوة الكافية لايصالهم بكل سرور الى حيث يقصدون .

تأزم الموقف . كان عدد الشرطة كبيرا ولكن لم تكن لهم وسيلة لسحب الفين او ثلاثة آلاف طالب من عربات القطار ، لذا لم يكن فى وسعهم الا ان يطوقوا المحطة كأنهم على ابواب معركة. كان هذا المشهد من المشاهد النادرة التى تحدث فى المحطة. طرد المسافرون العاديون من المحطة ، اما القسم الآخر هم الطلاب فقد ظلوا ثابتين فى اماكنهم فى القطار الواقف . بدا رجال الشرطة وكأنهم يواجهون عدوا رهيبا ، فقد كانت وجوههم جميعا محتقنة من الغيظ وهم يقفون فى اماكنهم كالاوتاد المغروسة فى الارض . لقد مضت على وصولى الى هذه البلاد عدة سنوات ولكن هذا المشهد كان اول مشهد من نوعه اراه .

خلف سور المحطة الحديدى تجمع عدد من الناس فرقهم رجال الشرطة ولكن الجمهور راح يزداد عددا بعد لحظة وراح يتطلع باهتمام الى ما يحدث داخل المحطة .

بعدئذ توافد تباعا عدد من الرجال بعضهم يلبس البزات الاوربية ، بعضهم ثوبا ازرق يغطيه معطف اسود ، بعضهم فى سن متقدمة بلحى بيضاء او موخطة بالشيب ، بعضهم شباب يلبسون النظارات الذهبية ويغطى وجوههم الكريم .

يبدو من ملامحهم انهم كانوا فى غاية الاضطراب والحرج . ركضوا نحو العربات ، صعدوا اليها ، وراحوا يتحدثون مع الطلاب . لا ادرى ماذا دار بينهم من حديث ولكنى اظن انهم رددوا ما قاله رجال الشرطة : القطار لن يسافر ، عودوا الى بيوتكم . واذا لم يكن ذلك فلماذا اذن كانت ملامحهم تدل على الاضطراب والحرج ؟!

جواب الطلاب سمعته جيدا واضحا : " لن ننزل من القطار ، لن ننزل من القطار

ابدا الا بعد الوصول الى حيث نقصد ! " وكان هتافهم يشبه دائما هدير المد الصاعد.

هوو . . . ، هتفت معهم وهذا يعنى اننى أنحاز اليهم واننى اؤيدهم وأرغب فى نقلهم الى حيث يقصدون .

استمر الوضع على هذا الحال وقتا غير قصير ، ولو سمحوا لى بالسير لكنت اجترت اكثر من خمسمائة كيلومتر . ولكن الموقف ظل متأزما . ازداد عدد المتراكضين من ذوى الملامح المضطربة المحرجة كانوا يصعدون الى القطار ، يتكلمون مع الطلاب ، ثم ينزلون بوجوه مضطربة متجهمة . كانت الريح تعدو فى الفضاء وهى تصهل كأنها تتحدانى وتدعونى الى السباق ! اننى لا اخاف تحديها . فلو سمحوا لمحركاتى بأن تدور ولعجلاتى بأن تعدو لظلت الريح تلهث خلفى . الطلاب انفسهم لم يخافوا الريح ، كانوا ينظرون الى بعيد وهم يتشبثون بالنوافذ حتى يخيل لمن يراهم ان عيونهم ترسل شواظا من لهب . نزل بعضهم من القطار وراحوا يسيرون بمحاذاة العربات بعزم وتحد كأنهم مقاتلون فى الخطوط الامامية .

ثابر الطلاب على موقفهم ، فاذا جاعوا تناولوا شيئا من الزاد الذى يحملونه واذا عطشوا تجرعوا بعض الماء من زمزمياتهم . فلو ظل القطار واقفا عشر سنوات لظلوا هم واقفين عشر سنوات ايضا . ايقنت انهم جميعا شجعان مكابرون ، فى حين بدأت عزائم رجال الشرطة الذين يطوقونهم تتراخى ، بعضهم بدأ يتثاءب وبعضهم بدأ يغمغم شيئا لا افهمه ، ربما لأن سجائرهم قد نفدت ولأن سيقانهم بدأت تتعب .

احسست بالغضب من هذه الحالة . ان قوتى هى دائما ملكى ولو شئت ان انقلهم فلست بحاجة الى احد ، اذن ، لماذا تمنعونهم من السفر بهذا الحران ؟ ثم انى معتادة على العمل ولا اشعر بالسعادة الا عندما اركض واعرق . اما بقائى هكذا بلاحراك اكثر من عشر ساعات متوالية فان ذلك يحولنى الى ما يشبه الحلزون الكسول ! لا اريد ان ابقى هكذا ، اننى اسأم حتى الموت !

هوو . . . عندئذ هتفت ، اريد ان اسافر ، لا احب ان اجمد فى مكانى . اذا دارت عجلاتى فان آلاف المشاة والخيالة لا يستطيعون ايقافى ، فكيف بهؤلاء الرجال

ذوى الوجوه المضطربة وهؤلاء الشرطة الحمقى . هوو . . . هوو . . . اريد ان اسافر ، ولكن عجلاتى لاتدور . عندئذ ادركت ان جسدى فيه عيب كبير وهو ان محركى مرتبط بارادة اشخاص آخرين . فلو كان فى استطاعتى ان اتحرك متى شئت واتوقف متى شئت لكنت قد نقلت هؤلاء الطلاب نحو غايتهم ، ولن انقل مرة ثانية " ذلك الرجل وحده " ليأخذ حماما ويلتقى بفتاة جميلة . ليأت شخص ما اذن ليدير محركى ! ليأت شخص ما اذن ليدير محركى ! هوو . . . هوو . . .

يبدو ان سائق القطار قد فهم ندائى. وصل فجأة وادار محركى بحركة عادية منه . آه ! لقد عاد فى استطاعتى الآن ان اتحرك ، ان أساعد هؤلاء الطلاب ، هوو . . . هتفت ثم انطلقت خارج المحطة كأنى اطير بجناحين .

ـ انتصرنا !

كان هتاف الطلاب شبيها بهدير المد الصاعد . وكانت الريح تصهل ايضا ولكن صوتها كان يضيع بين هتافات الطلاب .

فى هذه اللحظة بدأت رقع الثلج تتساقط متراقصة مثل ريشات تتطاير من مخدات ممزقة . ولكنى لا اخاف البرد، جسدى يشتعل نارا حتى ان حبات البرد تتحول الى ماء عندما تلامس جسدى . فهل اخشى رقع الثلج هذه الشبيهة بالزغب ؟! الطلاب هم ايضا لا يخافون البرد ، كانوا يمدون ايديهم خارج النوافذ لالتقاط رقع الثلج المتساقطة من السماء المغبرة والشبيهة بالزغب ثم راحوا ينشدون اغنية " مسيرة فى الثلوج " .

كانت عجلاتى تنزلق فوق السكة الحديدية فتتراكض حولى الحقول والانهار والقرى والغابات تحت سماء قاتمة . كانت الريح تراقص رقع الثلج كأنها تثير غبارا ، وكنت اركض بكل سرعة وبكل قواى حاملة الطلاب المتدفقين حماسة وشهامة المفعمة قلوبهم جرأة وتوقدا . . . كنت اتقدم واتقدم !

فجأة ادار السائق محركى فى اتجاه معاكس واخمد حركته فبدأت اتوقف ، اتوقف ببطء . ما الخبر ؟ تنهدت تنهيدة حزينة وتطلعت الى الامام . امامنا نهر يتقاطع مع السكة كان يجرى وكأنه يغنى اغنية شجية . انا اعرف جيدا هذا المكان .

فلطالما حملت الى ضفتيه فى الربيع والخريف المتنزهين والمتنزهات ليجذفوا فوق صفحته ، وليتسابقوا وهم يغنون ويفرحون . ولكن الطلاب لا شأن لهم الآن بالتنزهات . انهم يفكرون فى الخطر الذى يهدد الوطن ، وليس لديهم الآن اى ميل لتسلية فلماذا التوقف هنا فى مثل هذه الظروف ؟!

استغرب الطلاب ذلك وراحوا يهتفون :

ـ لماذا التوقف ؟! فلنمض ! يجب ان نصل الى غايتنا !

كانت هتافاتهم تشبه هدير المد الصاعد ، وكأنما هى تأنيب لى .

ـ اعزائى الطلاب ، اريد من كل قلبى ان اوصلكم بأسرع ما يمكننى الى غايتكم ، ولكن شخصا ما اوقفنى ! اسرعوا الى السائق واطلبوا منه ان يستأنف السير ! أوكد لكم اننى ابذل كل جهدى واستطيع ان اجرى بسرعة اكثر !

جالت هذه الافكار فى ذهنى فتنهدت تنهيدة اسى وحزن !

اسرع بضعة عشر طالبا نحوى وراحوا يسألون عن سبب التوقف ، واكتشفوا ان السائق قد اختفى ، عندئذ فهموا السبب وعادوا يخبرون زملاءهم .

ـ فتشوا عن السائق ! فتشوا عن السائق ! فى هذا السهل الواسع المقفر لا يستطيع ان يهرب .

قال الطلاب ذلك ثم اسرعوا فى البحث فى العربات المقطورة بى : تحت المقاعد ، فى المراحيض ، بين الامتعة ، بين صناديق القطار ، فتشوا كل مكان ولكن دون جدوى . ومع ذلك فقد تابعوا حملة التفتيش واخيرا استطاعوا ان يكتشفوا مخبأه ، كان مختبئا فى احدى خزائن المطبخ وقد تكور وانكمش وهو يغطى وجهه بخرقة . عندئذ قاده الطلاب نحوى ثم طلبوا منه ان يدير محركى .

حينئذ بدا وجه الرجل فى غاية الاضطراب ، قطب حاجبيه ، وغضن جبينه كأنما هو لص القى عايه القبض بالجرم المشهود ، لم اره ابدا فى حياتى فى مثل هذه الحالة . كان عادة فرحا يغنى اغانى الحب الجبلية وهو يقودنى ، اما الآن فقد بدا شخصا آخر . واغرب ما فى الامر انه كان يقف قرب مرجلى مرتجفا شبيها بشحاذ يتبع

المارة راكضا تحت الثلج .

قال وهو يطأطئ رأسه بعد دقيقة صمت :

ـ عفوا ايها السادة ، لا استطيع ان اتابع السفر !

ـ لماذا لا تستطيع متابعة السفر ؟

ـ تلقيت امرا من رؤسائي !

ـ لماذا اوصلتنا الى هنا ؟!

ـ تلقيت امرا من رؤسائي . امرني رؤسائي بأن اوصلكم الى هنا وبأن اتوقف هنا . لهذا لا استطيع متابعة السفر !

ـ هكذا اذن ! الآن دع اوامرهم جانبا وتابع السفر ليس الا !

دفعه الطلاب ، جذبوه وراح بعضهم يشده من يديه ويلصقهما بمحركي ، كان المسكين كريشة في مهب الريح يلمس محركي بيدين مرتجفتين كأنما هو يلمس افعى سامة .

رحت احدث نفسي : اسرع يا صاحبي ، دعني اتحرك ، يكفي ان تدير محركي وبعد ذلك استطيع ان اجري لوحدي وسيكون الطلاب لك من الشاكرين !

ولكن يخيل الى ان يدي صديقي القديم كانتا مشلولتين ، كانتا تلامسان محركي ، ولكن بلا ادنى حركة وعندما رأى ان الجميع يتطلعون اليه تدحرجت الدموع من عينيه وقال بصوت حزين :

ـ اذا تقدمت بكم اكثر فان مصيري الاعدام رميا بالرصاص بكل تأكيد . ايها السادة ، عندي اسرة وعلي ان اعيلها .

ـ آه ! قاس ! بلا قلب !

ولكن بعض الطلاب الكبار قالوا بلهجة متسامحة :

ـ دعوه يذهب ، لا نقبل بأن يعدم رميا بالرصاص ، لا نقبل بأن تموت اسرته جوعا ، لا يطاوعنا قلبنا لأن نقدم على مثل هذا العمل . نحن درسنا الميكانيك وتعلمنا تشغيل المحركات فلنجرب !

ـ حسن ، حسن ، والنصر لنا !

ترددت هتافات الطلاب المرحة مثل المد الصاعد . وبدأ هؤلاء الطلاب يديرون محركي وفي هذه اللحظة بدا صديقي القديم مثل الجرذ ثم هرب ولم يعرف احد اين اختفى .

بدأت عجلاتي تنزلق فوق السكة وراحت الحقول والانهار والقرى والغابات تتراكض تحت سماء داكنة غبراء . كانت الريح تكنس الثلج كأنما تثير غبارا . كنت اركض بكل سرعة وبكل قواي حاملة الطلاب المتدفقين حماسة وشهامة المفعمة قلوبهم جرأة وتوقدا . . . كنت اتقدم واتقدم !

آه ! يا للمصيبة ! لقد رأيت ان القضبان الحديدية امامي قد اقتلعت على مسافة ما حيث تحدث كارثة رهيبة اذا استمر السير ثلاثين ثانية . ولم اكترث لمصيري الشخصي واذا كان هناك ضرورة للتضحية اضحي بنفسي ، ولكن ما العمل بالنسبة الى هؤلاء الطلاب ؟ سوف تتحول اجسامهم الى اشلاء ووحول وسوف تنطفئ حماستهم وتخمد همتهم السامية ! كيف استطيع ان اشاهد مثل هذه المأساة ! فهتفت " هوو . . . هوو . . . " ، لقد كنت خائفة حتى اختنق صوتي ولكني لا استطيع ان اوقف نفسي بنفسي بينما كنت اتلوى من الألم حتى الموت ، "آه ! " هتف احد الطلاب الكبار الاقوياء ثم اوقف محركي فجأة وبكل ما اوتي من قوة ومهارة . توقفت عندئذ بسرعة وتسمرت في مكاني ولم تكن بيني وبين الكارثة الا بضع خطوات ومع انني احسست بالاطمئنان الا ان انفاسي ظلت مبهورة فترة من الزمن .

نزل كثير من الطلاب ليشاهدوا الموقع الذي كاد يؤدي بهم الى كارثة حقيقية . كان الثلج والريح يقدان الجلد مثل سكين حادة والظلام حالكا كثيفا يغلف كل ما حولهم ، ولكنهم لم يكترثوا بكل ذلك . استعانوا بعيني التي تكشف الطريق فرأوا ان قضبان السكة قد اقتلعت وانها ليست على جانب الخط . فأين خبئت اذن ؟!

ـ فلنبحث عن قضبان السكة كما بحثنا عن السائق من قبل !

لم اعرف من هتف بهذه الجملة ولكنني رأيت عددا من الطلاب ينتشرون على جانبي

الخط مثل جنود الاستطلاع . ينحنون احيانا ويركضون احيانا ويبحثون في كل مكان بعيون ملهوفة . ولكن دون جدوى ، مضت نصف ساعة دون ان يجدوا اثرا لقضبان السكة المقتلعة .

– وجدتها !

ارتفع صوت مرح من ناحية النهر فانطلق نحوه عدد من الطلاب . كان النهر متجمدا وقد تكومت فوقه اعداد من القضبان السوداء ، أليست هي قضبان السكة الحديدية ؟!

– وجدناها ! وسوف ندبر امرها !

– طلاب الهندسة تعالوا الى هنا ، تعالوا الى العمل التطبيقي واصلحوا الخط .

– علينا ان نسحب القضبان من النهر اولا !

هتف الجميع :

– صح ! يجب ان نسحب القضبان اولا !

كسر الطلاب الجليد واخذوا يسحبون القضبان واحدا بعد واحد وكان اكثرها قد غاص في قاع النهر . كانت الرطوبة والوحل تخترقان احذيتهم وتبللان اجسادهم ولكنهم لم يكترثوا بذلك .

من سد طريقنا بهذه الحواجز ؟ !
من سد طريقنا بهذه الحواجز ؟ !
قضيتنا صعبة ! لن نتذمر ، لاجدوى من التذمر !
علينا ان نشعل البارود الكامن تحت التراب .
نسدد على الحواجز وننسفها ! ننسفها ! ننسفها !
التلال والجبال تنهار والارض والسماء تزلزلان !
القمم ندكها ،
والطريق نشقها .
نرفع هاماتنا عالية ،

نتحد بعزم وتصميم ،
نحن طليعة المسيرة ،
نحن طليعة المسيرة .
فلننسف الحواجز !
ننسفها ! ننسفها ! ننسفها !
ها ! ها ! ها ! ننسفها !

تابع الطلاب نقل القضبان من شاطئ النهر حتى خط السكة وهم ينشدون نشيد " طليعة المسيرة " . كانت العواصف الثلجية تجرح وجوههم مثل المدى الفولاذية وترميهم بآلاف السهام ولكنهم لم يكترثوا بذلك !

بعد ان اوصلوا القضبان الى مكان العوارض الخشبية ادركوا ان البراغى مفقودة .

هتف طلاب الهندسة وهم يلهثون من التعب :

ـ فتشوا عن البراغى !

ـ لا شك فى ان البراغى قد القيت فى قاع النهر ، لنبحث عنها تحت الماء .

اسرع الطلاب يتلمسون قاع النهر ويبحثون فيه . بعد برهة هتف احدهم بأنه وجد واحدا ، وبعد فترة اخرى هتف طالب ثان بأنه ايضا وجد واحدا ، وهكذا كلما هتف احدهم بانتصار جديد ردد الآخرون هتافات الفرح .

من عادتى ان يكون قلبى قاسيا ودمعى عاصيا ولكن الطلاب هذه المرة اثروا فى نفسى تأثيرا عميقا ولم استطع ان امسك دموعى ، حتى عشيت عيناى من طول البكاء .

بعد ان جمعت البراغى كلها ثبت طلاب الهندسة القضبان ورحت اركض حاملة الطلاب الى الامام . هذه المرة لم يسمح لى الطلاب الذين يديرون محركى بأن اجرى بسرعة وكانوا ينظرون الى الامام مستعينين بعينى مخافة ان تفاجئهم اخطار جديدة . بعد فترة لاحظوا ايضا ان قطعة من السكة قد اقتلعت .

توقفت ونزل الطلاب يبحثون عن القضبان ولكنهم لم يجدوا لها اثرا ، عندئذ قرروا ان يقتلعوا القضبان التى تركناها خلفنا لاصلاح السكة امامنا .

انهمك الجميع فى العمل ، بعضهم يقتلع الخط وبعضهم يحمل القضبان وبعضهم يركب البراغى فتختلط اصوات المطارق بأصوات هؤلاء البناة الارتجاليين . وهم ينشدون نشيد " طليعة المسيرة " :

. . . . . .
القمم ندكها ،
والطريق نشقها .
نرفع هاماتنا عالية ،
نتحد بعزم وتصميم ،
نحن طليعة المسيرة ،
نحن طليعة المسيرة .
فلننسف الحواجز !
ننسفها ! ننسفها ! ننسفها !
ها ! ها ! ها ! ننسفها !

انقشعت السماء وتوقف الثلج . وفى الفجر الازرق الصافى وفوق الارض الفضية الناصعة البياض ، لم يتثاءب اى واحد من هؤلاء البناة الارتجاليين ، لقد كانوا يعملون بعزم وحماسة . ولم يكن فى وسعى الا ان اقول لهم وانا انظر اليهم :

— انتم قادرون على ترميم الطريق ! كل الحواجز امامكم ليست الا اوراق اشجار ميتة . اكفل لكم اننى احملكم الى غايتكم ولو كانت فى اطراف الكون . أ ليست غايتكم فى مكان محدد ؟! واينما كانت هذه الغاية فاننى ارغب فى خدمتكم ونقلكم . حيثما ترمموا الخط انقلكم بكل سرعة والى الامام !

يخيل الى ان البناة الارتجاليين قد سمعوا كلماتى فأجابونى بنشيدهم :

نحن طليعة المسيرة ،
نحن طليعة المسيرة .

فلننسف الحواجز !
ننسفها ! ننسفها ! ننسفها !
ها ! ها ! ها ! ننسفها !

ـ عام ١٩٣٦ ـ

مطبعة اللغات الاجنبية   بكين

توزيع

الشركة الصينية العالمية لتجارة الكتب

(كوزى شوديان)

ص : ب ٣٩٩ بكين — الصين